الدكتور حسين نصار
عميد كلية الآداب القاهرة

مصر العربية

منشورات
إقرأ

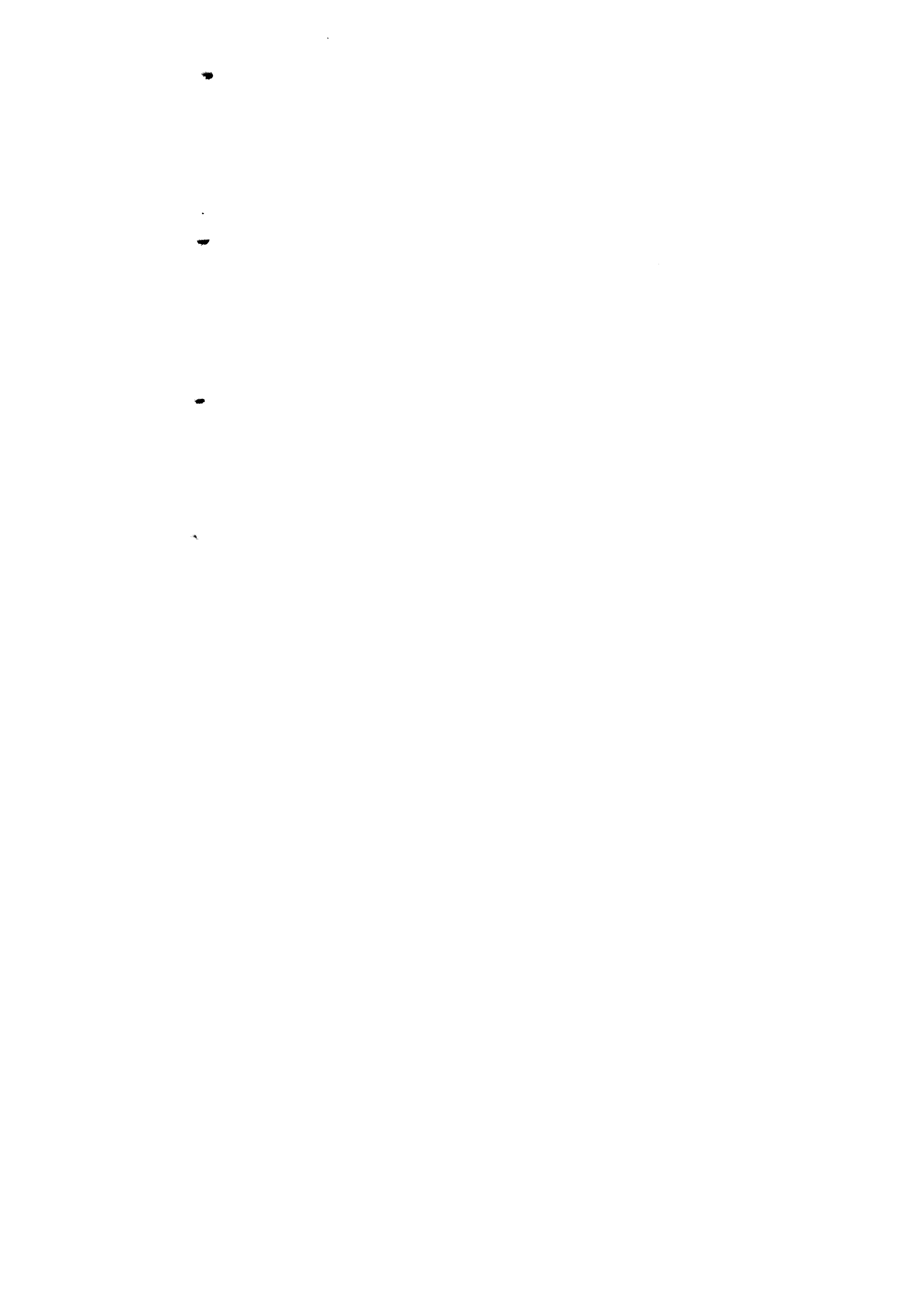
الطبعة الثالثة

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

منشورات إقرأ

هاتف: ٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧- ص.ب: ٥٢٥١/١٣- بيروت - لبنان

مصر العربية



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمَةُ الطَبْعَةِ الثَانِيَةِ

عشت العام الماضي مع ما كتبته في الطبعة الأولى من هذا الكتاب، دارساً، ومدرساً، ومناقشاً، منفرداً ومجتمعاً مع الأصدقاء. فزدت إيماناً بما قلت. وزادت لدي بعض المعلومات. واتضح لي سبيل العمل أكثر مما كان عليه.

فقد تبين لي ألا سبيل إلى التغلب على صعوبة فقدان النصوص الأدبية، وجهل الأدباء الذين ظهروا أو أقاموا أو زاروا مصر، إلا بتتبع الأفواج العربية المهاجرة إلى مصر، واستقصاء ماضيها في شبه الجزيرة العربية، والتعرف على ألوان نشاطها الفني. فذلك - في نظري - المنهج السليم للتعرف على الألوان الأدبية التي دخلت مصر واطلع عليها المصريون وتمثلوها وربما حاكوها. فهو إن لم يعطنا خصائص الأدب المصري، أعطانا خصائص الأدب الذي كان يصدره من وفدوا على مصر قبل وفادتهم، ولا شك أنهم حملوه إليها. وربما استمروا في التحلي بها فيما أصدروه بها.

ورأيت في حياة شاعرين من أشهر شعراء العرب حقبتين غامضتين بمصر أعني أبا تمام والبحتري فحاولت جاهداً أن ألقي بعض الأضواء عليهما لألفت الأنظار إليهما، والله أسأل التوفيق.

مُقَدّمَةُ الطَّبْعَةِ الأُولَى

أخذ العرب يحسون بحاجتهم إلى التجمع في أواخر العصر الجاهلي، وظهرت في المجتمع العربي بوادر الشعور بأنهم أمة واحدة، ولكن هذا الشعور لم يبلغ مبلغ الوعي التام، والإدراك الكامل، والتجلي في أعمال تحققه إلا بظهور الإسلام، ومحاولة رسوله عليه الصلاة والسلام أن يضم أبناء شبه الجزيرة العربية جميعاً تحت رايته.

ولما حقق العرب وحدتهم حققوا معجزتهم، فقد انتشروا في سرعة مذهلة في أرجاء العالم المعروف، ورفعوا راية الإسلام في رقعة من الأرض تمتد من أسوار الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن أواسط إفريقية جنوباً إلى أطراف أوروبا الجنوبية شمالاً، وفرضوا العربية لغة يتحدث بها من يعيشون بين الخليج العربي والمحيط الأطلسي، بل كثيرون ممن يعيشون وراء هذه الحدود في كثير من الأحيان.

وازدهرت الحضارة في تلك الأرجاء، وارتقت الثقافة، وكثر التأليف وتنوع. ولكن وسائل المواصلات التي كانت

معروفة في تلك العصور كان لها أثرها. فلم يكن من اليسير على هذه الأمصار المتباعدة أن تطلع على كل ما يخرجه كل إقليم منها، أو أن تتابع تطوره العملي والفني، وإن اتحدت جميعاً - بطبيعة الحال - في الشغف بما تنتجه العاصمة، ومحاولة الإطلاع عليه واقتنائه ولذلك نجد الأقاليم العربية جميعاً تعرف أحسن المعرفة تاريخ الأقالم التي قدر لها أن تكون بها العاصمة في يوم من الأيام وفنونها. تعرف هذا التاريخ السياسي والفني ما بقيت العاصمة في الإقليم. فإذا ما انتقلت منه، انتقل هو أيضاً إلى عالم الظلام. فالدارسون ملمون كل الإلمام بتطور الحجاز في العهد الراشدي والأموي، ثم لا يعلمون عنه غير قليل بعد ذلك. وهم محيطون بتطور الشام في العهدين السابقين ثم هم على جهل بما كان بعدهما. ولعلنا نضيف إلى الأقاليم التي تضم العواصم، والأقاليم التي ضمت المعارضة. فتلك نالت بعض ما نالته سابقتها من عناية.

ولم تكن مصر في العصور الأولى مركز العاصمة أو موطن المعارضة. فلم يعن مؤلفوا العاصمة أو الأقاليم الأخرى بمتابعة تطورها أو الإغتراف من تياراتها، أو الإشارة إلى إعلامها وضاع ما أصدرته مصر من مؤلفات أو أغلبه. فكان الجهل بما كان فيها تاماً أو قريباً من التمام وكان الضرب في وادي الأوهام، واللجوء إلى الظنون من المؤلفين المحدثين.

وليتهم أقاموا ظنونهم وتخميناتهم على استقصاء متحر دائب لما تخلف عن التيارات الأدبية التي كانت بمصر، أو تسرب منها إلى الأقاليم الأخرى، أو على معرفة متعمقة شاملة لما بين أيدينا من آثار فقد كتب الكاتبون عن تاريخها العربي منذ أمد، بالرغم أن كثيراً من الكتب التاريخية المصرية لم تنشر نشراً محققاً إلا منذ وقت قريب، بل لا زال بعضها يعيش حبيس المكتبات مخطوطاً، فلا زال أهم كتاب أعني المقفى للمقريزي. لا نعرف منه غير أربعة أجزاء مخطوطة، ثلاثة منها تترجم للمحمدين، ويقال أن الكتاب كاملاً محفوظ بإحدى مكتبات الصعيد، ونشر منذ عامين أن إدارة الثقافة عازمة على إخراج دائرة معارف، تضم من أخرجتهم مصر من أهل الفنون والعلوم المختلفة، ثم لم نعد نسمع عن المشروع شيئاً.

ولست أدعي أن هذا الكتاب، الذي أقدمه اليوم للقراء، بعيد عن كل هذه الأخطاء. مبرأ من كل نقص، يسد كل ثغرة. ولست أدعي أن كتابي هذا يؤرخ للتطور السياسي أو الأدبي في مصر ولا زلت أظن أننا لا نستطيع التأريخ الدقيق الكامل لمصر، على الرغم مما أخرجنا من كتب. ولكن هذا الكتاب يقدم للقراء ثمرات دراسة قام بها مؤلفه في كتب منها ما كان بين أيدي من كتبوا قبله ومنها ما لم يكن بين أيديهم. ولست أدعي أن كتابي هذا يضم معلومات جديدة على كثير من الدارسين لأمور مصر في

عهودها العربية الأولى ولكنه جمع ما كان يعرفه الدارسون من معلومات، وأضاف إليها بعض إضافات، فإذا بها تتخذ صوراً تختلف كل الإختلاف عما كانت عليه. فلم يسعني إلا أن أكمل هذه الصور ثم أعرضها على الباحثين والقراء لأني أرى فيها ما هو جدير بأن يبحثه غيري من الباحثين، وأن يناقشه غيري من الدارسين. فإن اتفق منا الرأي جميعاً بعد ذلك، تغيرت نظرتنا إلى كثير من الأمور في تاريخ مصر السياسي، وتاريخها الأدبي. وإن اختلف الرأي، كان الكتاب قد حقق هدفه، إذ دفع المحبين للحقيقة العلمية إلى الشك فيها لديهم، والبحث عن الحق.

أما الأدب العربي في مصر في عصورها الأولى، فقد أثارت دراسته ولا زالت تثير جدلاً عظيمًا ولا زال الكاتبون يذهبون إلى أنه أدب متخلف لا يقف أمام آداب الأقاليم الأخرى، وأن العرب الذين حلوا بمصر كانوا من اليمنيين الذين لا يحسنون إنتاج الأدب العربي الرائع باللغة الفصحى، أو أنهم لم يستطيعوا ذلك لبعدهم عن بلادهم الأولى، وعدم تكيفهم مع البلاد الجديدة.

ولست أدعي أن كتابي هذا يغير هذه الأفكار تغيراً تاماً. ولكنه يعطينا مجموعتين من العرب لم يذكرهما أحد من الدارسين من قبل: قبيلة عربية كبيرة، وأسرة عربية صغيرة، نزلت كل منهما بمصر، وأقامت بها، وواصلت إنتاج

تراثها الفني الذي كانت تنتجه في شبه الجزيرة. وتبين لنا في جلاء أن عرب مصر شاركوا إخوانهم عن عرب الأقاليم الأخرى في جهودهم الفنية؛ ولكن كثيراً من الجهود المشرقية احتفظ بها، على حين لم يحتفظ بالجهود المصرية أو أغلبها.

وإذن فهناك أمور كثيرة لا يدعيها هذا الكتاب، ولكنه يدعي أمراً واحداً لعل الباحثين والدارسين يقرونه له، يدعي أنه يقدم نتائج علمية جديدة وحقائق أدبية، وصفحات غير معروفة من أدب مصر وتاريخها، فيضع مصر في وضعها الحق بين أخواتها العربيات.

دَولَــةٌ مُهــمَلَةٌ

هذه إمارة مصرية، قامت في العصر العباسي الأول، وخـلافة بغـداد في أوج مجدهـا. وكـانت عـلى قسط من الإستقلال الذاتي، شـأنها شأن بقيـة الدول التي تلتهـا، وتمتعت بكل مقومات مثيلاتها من الدويلات الإسلاميـة. ووردت أخبارها على شيء من التفصيل في كتاب ولاة مصر للكندي، ومجملة في النجوم الزاهرة لابن تغـري بردى، وأشيرَ إليها إشارات متفاوتة الطول في خـطط المقريـزي، وتاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، وأورد المحدثون هذه الأخبار عن تلك المراجع القديمة، ولكن أحداً منهم لم يشر إلى أن هذه الأخبار تؤلف حين ترتب ترتيباً صحيحاً دولة لها كيانها ومقوماتها.

وأحاول في هذا المقال أن أروي الأحداث كما ذكرهـا الأقدمون دون تدخل مني، غير شيء من التنظيم والربط

(*) نشر ملخص لهذا البحث في «المجلة»، السنة الأولى، العدد الثالث.

فإن اقتنع القراء معي بأن هذه الأخبار تقيم دولة ذهبوا مذهبي أن هذه الدولة أول دولة مصرية نالت قسطاً من الإستقلال الذاتي في العصر الإسلامي.

في الخامس من شوال سنة اثنتين وثمانين ومئة، قدم الليث ابن الفضل مصر، والياً عليها من الخليفة هارون الرشيد. وقدم معه كعادة الولاة حينئذٍ ـ جند له، كان فيهم رجل لا يميزه عنهم شيء ذلك هو السَّريّ بن الحكم بن يوسف بن المقوَّم، مولى بني ضَبَّة. وأصلَه من الزُّطّ، من أهل بَلْخ من خراسان.

وفي مستهل محرم سنة سبع وثمانين ومئة، خرج الليث إلى الخليفة هارون الرشيد يشكو أهل الحوف الثائرين عليه، ويستنصره عليهم. ولكن الخليفة آثر عزله وتوليه أحمد بن إسماعيل العباسي مكانه. ولم يخرج السري بن الحكم مع الليث، وإنما بقي بمصر.

وتعاقب الولاة على مصر، ولا زال السري بن الحكم في جندها خامل الذكر، لا يورد له المؤرخون إسمًا، إلى أن ثار أهل نَتُو وتَمَى[1] على الوالي حاتم بن هَرثمة، سنة أربع وتسعين ومئة، وكونوا جيشاً، جعلوا على رأسه عثمان بن

(١) نتو: محلها اليوم تل المقداد الواقع في زمام كفر المقدام من مركز ميت غمر، وتمى: قرية من الجيزة.

مستنير الجذامي. فبعث إليهم حاتم جنداً، عليهم السري بن الحكم، وعبد العزيز بن عبد الجبار الأزدي، وعبد العزيز بن الوزير الجَرَوي فالتقى الجيشان في منتصف شهر رمضان، واقتتلوا. فانهزم ابن مستنير، وقتل أخوه. ودخل حاتم الفسطاط منتصراً، ومعه مئة من أشراف اليمنيين من أهل الحوف رهائن، في يوم الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة أربع وتسعين ومئة.

وفي يوم الإثنين لخمس بقين من جمادي الآخرة سنة ١٩٥، ولي مصر جابر بن الأشعث الطائي من الخليفة الأمين. وكان جابر ليِّناً محبَّباً إلى الناس من العامة والخاصة. واستمر الأمر على ذلك إلى أن خلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد، ونشبت الحرب بينهما، ومال النصر نحو المأمون، واضطرب حكم الأمين. فطمع الأمراء في الأمين، وشغبوا عليه، وانتشرت الفتن في الأقاليم المختلفة. وانتهز السري هذه الفرصة المتاحة فاجتمع هو ومحمد بن صعير بالخراسانيين من الجند، وأغرياهم بخلع الأمين والبيعة للمأمون وكان الخراسانيون أنصاراً للمأمون. يحاربون تأييداً له في المشرق، فأجابهم نفر يسير منهم. ثم مال معهم من أهل مصر زُرْعة بن معاوية قَحْزَم الخَوْلاني، ، وابنه الحارث، وهاشم بن عبد الله بن حُدَيج، وابنه هُبَيرة فبعث إليهم جابر بن الأشعث الوالي ينهاهم عن ذلك، ويخوفهم عاقبة الفتن.

وفي تلك الأثناء كاتب المأمون أشراف أهل مصر، يدعوهم إلى القيام بدعوته، فأجابوه سراً وأتى كتاب من هَرْثمةَ بن أعْيَن إلى وكيله على ضياعه بمصر عباد بن محمد بن حيان البَلْخي مولى كَنْدة، يدعوه إلى بث الدعوة للمأمون. فأظهر عباد كتاب هرثمة، وأحضر الجند إلى المسجد الجامع، وقرأه عليهم، ودعاهم إلى خلع الأمين والبيعة للمأمون. فأجابه معظم الناس، فأعطاهم رزقاً يسيراً؛ وكان ذلك لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ١٩٦.

وقام جابر بن الأشعث يدافع عن الأمين، فقاتله السري ومعه جماعة كبيرة من المصريين، حتى هزمه وأخرجه من مصر على أقبح وجه. وبويع أبو نصر عباد بن محمد والياً للمأمون بيعة عامة لثمان خلون من رجب سنة ست وتسعين ومئة.

ولم تهدأ أحوال مصر، إذ كتب الأمين ـ لما بلغه ما حدث ـ إلى أعوانه من أشراف العرب بمصر؛ كتب إلى ربيعة بن قيس الجُرَشي ـ رئيس قيس بالحوف ـ يوليه على مصر، وإلى عبد الصمد بن مسلم الجرشي، ويزيد بن الخطاب الكلبي، وعثمان بن مستنير الجذامي، يطلب إليهم معاونة ربيعة بن قيس، وإرسال أهل الحوف كلهم يمنهم وقيسيهم معه. فأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون وساروا

إلى الفسطاط لمحاربة أهلها. فحفر عباد خندقاً عليها، فنزل ربيعه عليه في آخر سنة سبع وتسعين ومئة، وتناوشوا شيئاً من حرب، فسقطت بينهم قتلى ثم انصرفوا. ولكنهم ما لبثوا أن عادوا واستمرت المعارك سجالاً بينهم على الخندق، وفي مواضع أخرى من الوجه البحري، إلى أن بلغهم مقتل محمد الأمين عام ١٩٨ وبيعة المأمون فتفرقوا. وكان السري على رأس أحد جيوش عباد التي اشتركت في هذه المواقع.

ثم صرف المأمون عباداً عن مصر في صفر سنة ١٩٨، وولى عليها المطلب بن عبد الله الخُزاعي، فدخلها في منتصف ربيع الأول فتلقاه السري بن الحكم متظاهراً بالنصح له، وهو يريد أن يوقع به وألا تطول أيامه في مصر فأغراه بأهل مصر، وخبره بإسراعهم إلى أهل خراسان، وخوّفه من إبراهيم بن نافع الطائي، وكان مجافياً للسري فطلبه المطلب فاستخفى منه. فجدّ في طلبه، واتهم زرعة بن قحزم، وهبيرة بن هاشم، وجُنادة بن عيسى وغيرهم بإخفائه، فسجنهم ليدلوه عليه. بل عرض هبيرة ابن هاشم على السيف أو يأتيه بالطائي - وكان مختفياً عنده - فأبى إلى أن سكن المطلب عن الطائي، فأخرجه هبيرة إلى الصعيد فأفلت.

وانتهز ذلك ربيعة بن قيس، فاتفق يزيد بن خطاب على الثورة وقتال المطلب. فأرسل إليهما جيشاً بقيادة عبد العزيز

الجروي، فالتقوا بشَطَّنُوف[1]، وكانت بينهم قتلى. وبعث المطلب جيشاً آخر تحت قيادة السري بن الحكم، فأقام بالحوف، فاضطرت قيس إلى التفرق وسكن أمرهم.

ثم عزل المأمون المطلب في شوال سنة ١٩٨، وولى العباس ابن موسى العباسي، فقدم ابنه عبد الله نائباً عنه، وسجن المطلب، وأساء السيرة، إذ ثاور الجند مرة معد مرة، ومنعهم أعطياتهم وهددهم، وتحامل على الرعية وظلمها، وهددها بقدوم أبيه. فأوحش الجميع ذلك من فعله، فثاروا عليه ودعوا إلى ولاية المطلب، وهو يومئذٍ في حبس عبد الله. فأخرجوه وولوه بإجماع الجند لأربع عشرة خلت من المحرم سنة تسع وتسعين ومئة. ولا تذكر المراجع التاريخية أكان للسري يد في هذه الأحداث أم لا، ولكن دارس هذه الأخبار لا يسعه إلا الشك في ذلك، فهي أحداث قريبة الشبه بما حدث لرجل آخر في تاريخ مصر الحديث، هو محمد علي.

وانتهز فرصة هذه الإضطرابات رجل طموح آخر، هو عبد العزيز بن الوزير الجروي، فثار بتِنّيس، في بحيرة المنزلة. وعبأ جنده في مراكب، سار بها حتى نزل بشطنوف فبعث إليه المطلب بالسري بن الحكم في جمع من الجند

---

(١) شطنوف: ناحية من مركز أشمون بمديرية المنوفية.

يسألونه الصلح. فأجابهم إليه وهو يضمر الغدر بهم واستطاع أن يأسر السري بالحيلة، ومضى به إلى تنيس فسجنه بها، وكان ذلك في جمادي الأولى سنة ١٩٩.

وآتت جهود السري بن الحكم أُكُلها، وهو في السجن، إذ بلغ عبد العزيز الجروي أن المطلب جادّ في حربه، فائتمر مع السري أن يطلقه من سجنه، ويذيع بين أهل مصر أن رسالة وردت من المأمون بولايته على مصر، على أن يثور بالمطلب ويخلعه. فعاهده السري على ذلك، واتفقا على عَقْد بينهما. فأطلقه الجروي، وأذاع ولايته بين الجند فاستقبله الخراسانيون منهم مرحبين، وعقدوا له عليهم، على حين امتنع المصريون. وبعث إليه المطلب بجند حاربوه في كل ناحية من الفسطاط، وألجأوه إلى منزله بالحمراء وأحاطوا به ثم سار إليه هُبَيرة بن هاشم بن حُدَيج، في آخر شعبان سنة مئتين فتحاربوا بسوق وَرْدان، وعند أصحاب القَرَظ فثارت غيرة لا يرى منها أحد شيئاً، وتحير بهبيرة فرسه، فسقط في حفرة وانكسرت رجله. فأدركه جمع من أصحاب السري فقتلوه وهم لا يعرفونه، واحتزوا رأسه، وأتوا به السري. فعظم عليهم جميعاً مقتل هبيرة، وانصرفت الفئتان، وقد انكسر المصريون لذلك، ورجحت كفة السري وأهل خراسان وطلب المطلب الأمان من السري، على أن يسلم إليه الأمر ويخرج عن مصر، فقبل السري وخرج المطلب في البحر الأحمر إلى مكة.

وأجمع الجند على توليه السري بن الحكم، على مصر صلاتها وخراجها، لمستهل رمضان سنة مئتين. فسكن العسكر على عادة أمراء مصر، وجعل على شرطته محمد بن عَسّامة، وأخذ في إصلاح أمور مصر وقراها. وترك السري عبد العزيز الجروي يستولي على الإسكندرية لقمة سائغة له أول الأمر. وبعد مدة جاءت جماعة من الأندلسيين المطرودين من بلادهم، في مراكب إلى الإسكندرية ونزلوا فيها، وقتلوا نائب الجرويّ، وأشاعوا النهب والسلب، وطردوا بني مُدْلج منها.

وبلغ الجروي ما فعله الأندلسيون، فسار إليهم في خمسين ألفاً حتى نزل على حصنها فحاصرها وأجهد أهلها، وكاد يفتتحها. ولكن السري خشي أن يفتحها ويقوي شأنه، ورأى الفرصة مواتية للقضاء على الجروي والتقرب إلى الأندلسيين والإسكندريين فبعث عمرو بن وهب الخُزاعيّ إلى تنيس، حاضرة الجروي، للإستيلاء عليها. فلما بلغ ذلك الجروي، فك حصار الإسكندرية وكر راجعاً إلى تنيس، وفسد ما بينه وبين السري. وكانت الثمرة أن دعا الأندلسيون بالإسكندرية للسري بن الحكم. وكان ذلك في المحرم سنة إحدى ومئتين وأراد السري التقرب من بني مدلج إذ توسط لهم لدى الأندلسيين، فأذنوا لهم بالرجوع إلى ديارهم في الإسكندرية.

ولكن عقبة خطيرة بزغت في الطريق فأحاطت بآمال السري، إذ فسد ما بينه وبين آل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ـ وكانوا من أشراف الخراسانيين بمصر. فشقوا عصا طاعته، وانضم إليهم الجند الخراسانيون، وأظهروا رسالة من طاهر بن الحسين قائد المأمون، يولي فيها سليمان بن غالب البَجَلي على مصر. وتمكنوا من خلع السري في مستهل ربيع الأول سنة إحدى ومئتين ونصبوا سليمان يوم الثلاثاء لأربع خلون من ربيع الأول. وهكذا لم تدم ولاية السري هذه إلا ستة أشهر.

ونهب الجند منزل السري، واضطر إلى الهرب منهم والإلتجاء إلى دار عَسّامة بن عمرة. ثم نفاه سليمان بن غالب إلى إخميم من صعيد مصر. ولكن آمال السري ودسائسه لم تتخل عنه، إذ كاتب من الصعيد بني مدلج وغيرهم من أعوانه، فلحقوا به، فأقبل بهم يريد الفسطاط لمحاربة سليمان. ولكن هذا أخذ للأمر أهبته وبعث إليه بجيش فالتقوا بقِمَن[1]، واقتتلوا، فانهزم السري وأسر هو وابنه ميمون. ولا ندري أكان سليمان كارهاً لسفك الدماء أم خائفاً من أعوان السري؛ إذ اكتفى برده وابنه إلى أخميم وتقييدهما وسجنهما هناك. وكانت هذه الوقعة في جمادي الأول سنة إحدى ومئتين، وقال فيها مُعَلى الطائي يمدح

---

(١) قمن: بمركز الصف من مديرية الجيزة.

سليمان:

إذا شَـنَّ في أرض سـليـمـانُ غـارةً
أثـارَ بهـا نَـقْعـاً كـثـيَر المَصـائـبِ
ألَمْ تَـر مِصْـراً كيف داوَى سقيمَهـا
على حيـنَ دانت لـلعَـدُوِّ المنـاصبِ
حَمَـاهـا ولـولا مـا تقلد أصبحت
حَبيسـاً على حُكمِ القَنَا والمقـانب

ولكن سليمان قدّم أتباعه وبطانته على أهل خراسان، ففسدوا عليه وتنكروا له، وهم سليمان بالفتك بهم ليقوي أمره. فألب عباد بن محمد عليه فخلعوه، لمستهل شعبان سنة ٢٠١ هـ، وقام بالأمر عليّ بن حمزة وسأل الجند عباداً أن يبايع، فامتنع وقال لهم: «هذا الرسول. قـادم عليكم بولاية السري، فانطاعوا إلى ذلك» ولحق بالجروي. كذلك لحق سليمان بالجروي فكانت ولايته خمسة أشهر.

ويبدو أن السجن كان مَجْلبة خير للسري، إذ أتته الولاية للمرة الثانية وهو فيه؛ قدم بها من قبل الخليفة المأمون عمر بن أعين أخو هرثمة، فبعث الجند إلى إخميم، فاستخرجوا السري من الحبس فدخل الفسطاط يوم الأربعاء لاثنتي عشرة خلت من شعبان سنة إحدى ومئتين. فأُلبس خلعة المأمون، وبايعه جميع الجند، وتوجه إلى العسكر، وأقام بها.

وكان قد آمن بأن عليه أن يخطب ود المصريين وإلا لم

يستقر عهده، فجعل على شرطة محمد بن عَسّامة أياماً، ثم عزله وولى الحارث بن زرعة. فشكا منه الجند بعد أيام، فعزله وولى ابنه ميموناً، ثم عزله وولى أبا بكر بن جُناده المَعافِري، ثم عزله وولى حماد بن المخارق التميمي، ثم عزله بصالح بن الحكم، ثم عزله بأخيه إسماعيل، ثم عزله بأخيه داود. كل ذلك لتغلب أهل مصر عليه وهو يصغي إلى قولهم، إلى أن استفحل أمره.

ولما ثبتت قدمه في إمرة مصر، أخذ يتتبع من كان حاربه وعاداه في أول ولايته، فأخرج جماعة، وقتل جماعة، وصلب جماعة. فتمهدت أموره، وقويت كلمته.

ولكن دار الخلافة ما لبثت أن اضطربت، فاضطربت مصر لاضطرابها، إذ اتخذ المأمون علي بن موسى الرضا ولياً لعهده، فثار العباسيون، وادعى إبراهيم بن المهدي الخلافة، وخلع المأمون وقامت الفتنة في بغداد. وكتب إبراهيم بن المهدي إلى وجوه الجند بمصر، يأمرهم بخلع المأمون وولي عهده، والوثوب بالسري. فقام بتلك الدعوة خصوم السري: عبد العزيز بن الوزير الجروي، وسليمان ابن غالب، وعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي بالوجه البحري؛ وسلمة بن عبد الملك الأزدي الطحاوي بالصعيد: والحارث بن زرعة بالفسطاط. وعقدوا الأمر لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي، وأجمعوا على ولايته ولحق كل من كره

بيعة الرضا وإمرة السري بالجروي لقوته وشدة سلطانه. ومـادت الأرض تحت أقدام السـري، ولكنـه لم يهن ولم يضعف.

وخـرج السري عـلى رأس جيش لملاقـاة عبد العـزيز الأزدي، وهزمه، وظفر به وبجماعة من أهل بيته، فقتل بعضهم. في صفر سنة ٢٩٢ هـ. وأرسل ابنه عبيد الله بن السري إلى سلمة الطحاوي فهزمه وأسره. وبعث به إلى الفسطاط، فأطلق السري سراحه تأليفاً لقلبه، فهرب إلى الجروي. وسار علي بن عبد العزيز الجروي والطحاوي إلى الإسكندرية وحاصراها، ودخلاهـا، ودعوا فيهـا للجروي ومضى سلمة منها إلى الصعيد في جمع كبـير من الجند، فأخرج عمال السري، ودعا للجروي وسـار الجروي في جموعه لمحاربة السري واستعد كـل واحد منهـا لصاحبـه بأعظم ما قدر عليه وبعث السري ابنه ميموناً على جيوشه، فسار في البر إلى أن نزل بشطنوف، وكان يسير معه أسطول بحري قد شحن بالرجال والسلاح. وأتى الجروي في البر والبحر أيضاً. فالتقوا بشطنوف. فقُتل ميمون بن السري، وانهزم جيشه، في جمادي الآخرة ٢٠٣ هـ. وأقبل الجروي في مراكبه إلى الفسطاط ليحرقها فخرج إليه أهل المسجد، وسألوه الكف، فانصرف عنها.

ودار الحظ دورته، وأخذت الأزمة تنفرج، إذ مات علي

الرضا، وهزم إبراهيم بن المهدي، فانكسر الداعون إليه في مصر وثبطت همتهم. وثار الأندلسيون بالإسكندرية على عامل الجروي وأخرجوه منها، ودعوا إلى السري. ولم يسكت الجروي على ذلك، بل جند الجند، وخرج يريد الإسكندرية في رمضان سنة **٢٠٣** هـ. ولكن السري أغرى به القبط بسخا[١]، وأعوانه من بني مدلج فالتقوا في معركة، حالف النصر فيها الجروية، وهرب بنو مدلج.

وفي تلك الأثناء عقد السري لأخيه داود، في ذي القعدة، على جيش بعثه إلى الصعيد لقتال سلمة بن عبد الملك الطحاوي. وأسره هو وابنه إبراهيم. فبعث بهما داود إلى الفسطاط، فقتل يوم السبت لتسع عشر خلت من المحرم سنة أربع ومئتين.

وسار عبد العزيز الجروي يريد الإسكندرية، فبلغها في مستهل شعبان سنة **٢٠٤** هـ. فأغلق الأندلسيون حصنها، فحاصرهم الجروي أشد حصار، ونصب عليهم المجانيق. واستمر يحاصرهم ويقاتلهم ويرميهم بالمجانيق سبعة أشهر، إلى أن أصابته فلقة من حجر منجنيق، فمات سلخ صفر **٢٠٥** هـ.

وترك السري - فيما يبدو - الجروي يحاصر الإسكندرية،

---

(١) سخا: من نواحي كفر الشيخ.

عند رؤيته عجزه عن اقتحامها، وتفرغ لتطهير الجبهة الداخلية، وتوطيد سلطته؛ والتقرب إلى المصريين، والتمهيد لأن يتولى ابنه الإمارة بعده. فنراه يرتكب الفعلة التي احتذاها محمد علي بعده في مذبحة القلعة. فقد أجمع علي الغدر بوجوه الجند الذين معه فجمعهم وأخبرهم أن رسولاً قد قدم من قِبَل طاهر بن الحسين، وأشار عليهم أن يتلقوه جميعاً. فخرجوا في النيل، وهم عباد بن محمد، وعوف بن وهب الخزاعي، وعلي بن أبي عون، وعلي بن إبراهيم وأخو الرافعي. وأركب معهم أخاه إسماعيل بن الحكم. وخرج هو معهم، ولكن في مركب غير مركبهم. وجعل في باطن مركبهم غلاماً له، أمره أن يخرق المركب. ففعل الغلام ذلك. فغرقوا ومعهم أخوه، وأخرجوا أمواتاً.

ومات لِهيعة بن عيسى، قاضي مصر، في مستهل ذي القعدة سنة ٢٠٤ هـ، فانتهزها السري فرصة للتقرب إلى المصريين، فجمعهم وشاورهم، فأشاروا عليه بإبراهيم بن إسحاق القاري، فنصبه وجمع له القضاء والقصص، يوم الإثنين لعشر بقين من ذي القعدة. ولما استعفى في جمادي الأولى سنة ٢٠٥ هـ أعفاه وولى إبراهيم بن الجراح وأمر القاضي الجديد بوضع مُصَلاة في المسجد الجامع، فاجتمع المصريون فألقوه في الطريق. فما تكلم فيه السري بشيء، استجلاباً لمحبة المصريين. وجلس إبراهيم بن الجراح للحكم في منزله، ولم يعد إلى المسجد الجامع.

ولم يطل العمر بالسري بن الحكم بعد وفاة عبد العزيز الجروي، وإنما مات بعده بثلاثة أشهر في الفسطاط، يوم السبت لسلخ جمادي الأول سنة خمس ومئتين. فكانت إمرته على مصر ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية عشر يوماً. وقيل: مات يوم السبت لانسلاخ ربيع الأول من سنة خمس ومئتين.

وولي الإمرة بعده ابنه أبو نصر محمد، بويع في يوم الأحد مستهل جمادي الآخر سنة خمس ومئتين، ووافق المأمون عليه فسكن العسكر، وجعل على شرطته محمد بن قشاش، ثم عزله وولى أخاه عبيد الله بن السري.

وامتدت سلطة محمد بن السري إلى الفسطاط والصعيد والجزء الغربي من الوجه البحري. على حين كانت بقية الوجه البحري والحوف الشرقي بيد علي بن عبد العزيز الجروي وسرعان ما اشتدت الخصومة ونشب القتال بينهما، كما كان الحال بين أبويهما. فالتقيا بشطنوف وعلى جيش محمد بن السري أخوه أحمد. فانهزم أحمد وأحسن عليّ بن الجروي فيه الظفر فلم يتبعه، حتى لامه شاعره سعيد بان عُفَير:

ألا مَن مُبْلغٌ عني عَلِيّا
رسالةَ من يلومُ على الركوكِ
عَلامَ حَسَبْتَ جيشك مستكفّاً
بشطّ ينوفَ في ضَنْك ضنيك

وقد سنحتْ لك القَصَرات ممن
رماك بجيشه الوهن الركيك
أمِنْ بُقْيا؟ فلا بقيا لمن لا
يراها عند فرصته عليك

ثم بعث محمد بجيش آخر، ولى عليه أخاه أحمد أيضاً. فالتقى الجيشان بدمنهور، وفشت القتلى بينهم، قيل أنهم بلغوا سبعة آلاف. وانصرف أحمد بن السري إلى الفسطاط، فتبعه أبو ثور في مراكب علي بن الجروي إلى جسرها، وعزم على إحراقها. فخرج إليه أهلها وسألوه الكف، فكف عنها كما كف أبوه من قبل.

وأوفد محمد بن السري وفداً إلى علي بن عبد العزيز الجروي يطلب الصلح، فاصطلحا على أن يكف أحدهما عن الآخر.

وما لبثت المنية أن عدت علي محمد بن السري، فتوفي ليلة الإثنين لثمان خلون من شعبان سنة ست ومئتين فكانت إمرته على مصر أربعة عشر شهراً وثمانية أيام.

فبايع الجند أخاه عبيد الله بن السري، يوم الثلاثاء لتسع خلون من شعبان سنة ست ومئتين، فسكن العسكر وجعل على شرطته محمد بن عتبة المعافري، وارتبط عبيد الله بالإتفاق الذي كان بين أخيه وعلي الجروي، فلم يشتبكا في قتال حتى مضت سنة ٢٠٦ هـ.

وإذا رأى الخليفة المأمون أن الأمور قد تمهدت له في المشرق وبغداد، التفت إلى مصر، وأراد أن يستعيد نفوذه فيها. فأرسل خالد بن يزيد بن مزْيد الشيباني والياً عليها، في جيش من ربيعة وأخلاط من الناس. فدخلها وأرسل إلى عبيد الله بن السري ليسلم إليه الإمرة، فامتنع واحتج بأن المأمون قد سبقت له الموافقة على إمرته، وبعث بأخيه أحمد ليصد خالد بن يزيد. فالتقوا بفاقوس من الحوف الشرقي، واقتتلوا ثم تحاجزوا وانتهز علي الجروي الفرصة المتاحة فانضم إلى خالد، ودله على الطريق. فحفر عبيد الله خندقاً وجند الجند، على حين جبى خالد الضرائب مما مر عليه من القرى. ثم سار خالد حتى نزل بدمنهور، ومنها إلى الفسطاط حيث وقف أمام الخندق، واقتتل هو وعبيد الله على الخندق، لخمس خلون من ربيع الأول سنة سبع ومئتين، ثلاثة أيام. فأسر خالد شماس بن داود بن الحكم، ابن عم عبيد الله، فقتله صبراً. ولكن عبيد الله صبّحه في اليوم الرابع بنفسه. فانهزم عنه، وفر إلى دمنهور. فقال المعلي الطائي:

فيا من رأى جيشاً ملأ الأرضَ فيضُه
أطلّ عليهم بالهزيمة واحد
تَبَوّا دمنهورا فدمّر جيشه
وعَرّد جيش الليل والليي راكدُ

وتبعه عبيد الله إلى دمنهور، وواقفه بها. وتبادلوا الرسل، وخالد يطلب إلى عبيد الله طاعة أمر المأمون. وعبيد الله ممتنع. ثم التقوا صبيحة الإثنين لمستهل ربيع الآخر سنة ٢٠٧ هـ، فاقتتلوا واستحرّ القتل في الفريقين كليهما، ثم ملّوا الحرب وكرهوها، فتوقفوا، وتقهقر خالد. وفاض النيل. فحجز بينهم فارتفع خالد إلى الجوف، فكره الجروي ذلك. ومكر به حتى جعله يجتاز النيل وينزل في نَهيا[1] في ضرّ وجهد.

ولما انكشف النيل، عسكر عبيد الله بالجيزة لعشر خلون من رمضان ٢٠٧هـ. ثم سار خالد بنهياً فحاربه وأسره، واستسلم معظم جيشه. ودخل به إلى الفسطاط يوم الإثنين لخمس خلون من شوال ٢٠٧هـ. ودعا عبيد الله بخالد، وسأله عما ذهب له من مال فأخبره فدفع إليه عبيد الله أضعافه، ومنّ عليه، وخيره بين المقام عنده أو يخرج حيث شاء. فاختار ركوب البحر إلى مكة.

وآثر المأمون. الإنتظار والتسليم بالأمر الواق. فأرسل رسولاً بموافقته على ولاية عبيد الله بن السري على ما في يديه، وولاية علي الجروي على ما في يديه.

وسرعان ما تجدد النزاع بين الجروي وعبيد الله. فقد

---

(١) نهيا: من مركز إمبابة بمديرية الجيزة.

أقبل الجروي على جباية خراجه، فمنعه قوم من أهل الحوف، وكتبوا إلى عبيد الله يستمدونه. فأمدهم بأخيه أحمد. فسار الجروي إليه فالتقوا ببلقينة[1]؛ فاقتتلوا يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ٢٠٧هـ. ثم اقتتلوا بمحلة أبي الهيثم[2] آخر صفر، ثم لثلاث خلون من ربيع الأول، وهم منتصفون لا يظفر أحدهم بالآخر، ولا ينتصر عليه انتصاراً حاسمًا. وأخيراً جمع الجروي شمله وانصرف إلى دمياط، فقال العلي للطائي:

ألا هل أتى أهل العراقَيْن وقعةٌ
لنَا بِحمَى بُلْقِينَ شَيَّبتِ الوُلَدا
وما كان منا قتلُهم عن جهالة
خَطاءً ولكنّا قتلناهُم عمداً
ولما تبيّنت المنية في القنا
نكصتَ تنادي حين ضلّ النّدا سعدا
فكيف رأيت الله أنزل نصره
علينا وولاك المذلة والطردا

ومضى أحمد بن السري إلى محلّة شَرْقيون[1]، فدخلها وأمر بنهبها. ثم مضى أصحاب عبيد الله إلى دمياط

(١) بلقينة: من مركز المحلة الكبرى بمديرية الغربية.
(٢) محلة أبي الهيثم: من مديرية الغربية.
(١) محلة شرقيون: الجانب الشرقي من المحلة الكبرى.

فدخلوها. ومضى عبيد الله فدخل تنيس لإحدى عشرة بقيت من ربيع الأول سنة ٢٠٩ هـ. واضطر علي الجروي إلى الفرار إلى الفرما ثم نزل فيها بينها وبين غزة.

وفي مستهل جمادي الآخرة سنة ٢٠٩هـ عاد الجروي فأغار على الفرما واستولى عليها. وخاف أصحاب عبيد الله فهربوا من تنيس ودمياط، ولحقوا بالفسطاط. فأخذهما الجروي غنيمة سهلة، وتقدم نحو شطنوف. فجمع له عبيد الله الجموع، واستعد كل استعداد، وعقد لمحمد بن سليمان بن الحكم على الجيش لحربه. فالتقوا بشطنوف، فكان النصر حليف الجروي أول النهار. ولكن عبيد الله كان قد أعد له كميناً أتاه على غرة فانهزم. وكانت تلك الوقعة يوم الإثنين لعشرة خلت من رجب سنة ٢٠٩ هـ. وطارد عبيد الله الجروي من دمياط إلى تنيس حتى لحق بالعريش؛ كما حدث في المرة السابقة.

وللمرة الثانية عاد الجروي في المحرم سنة عشر ومئتين فدخل تنيس ودمياط بغير قتال. ثم أتى محلة شرقيون، فبعث إليه عبيد الله بمحمد بن سليمان بن الحكم في النيل، فنزل بطوخ[١]: فبعث إليه الجروي بابن غُصَين السعدي فقاتله، فلما بلغت الهزيمة الجروي، مضى إلى الهُورين[٢]

---

(١) طوخ: من مديرية الغربية.
(٢) الهورين: من مركز السنطة بمديرية الغربية.

ومنها إلى جُرجِير[٣].

وفي تلك الأثناء كان المأمون قد سيطر تمام السيطرة على الخلافة، وقمع الإضطرابات المختلفة، وأراد أن يسترد سيطرة الخلافة على مصر، فانتهز فرصة الحروب الناشبة بين الجروي وعبيد الله، تلك الحروب التي نهكت قوى الفريقين. فأرسل أعظم قواد الخلافة عبد الله بن طاهر والياً عليها، وغازياً لها. ولما دخل مصر فعل الجروي معه ما فعله بخالد بن يزيد من قبل، إذ تلقاه بالأموال والحفاوة، وانضم إليه. وبعث ابن طاهر إلى عبيد الله يدعوه إلى السمع والطاعة. فدافعه عبيد الله ولم يعطه جواباً صريحاً. فسار ابن طاهر فنزل بلبيس، وراسل عبيد الله يرهبه ويمنِّيه، فلم يجنح إلى شيء من ذلك.

ولجأ عبيد الله إلى الحيلة والمداورة، فبعث حماد بن المخارق إلى المأمون يسترضيه ويتلطف إليه، ودافع ابن طاهر، وهو في الوقت نفسه يتخذ للقتال أهبته. فأحكم أموره، وحفر خندقه حول الفسطاط، وشحن سفنه بالجند والسلاح، وجعل عليها ابن الأكشف. ولكن ابن طاهر كان متنبهاً له. فتراخى عنه ريثما يجبي عماله خراج ما تحت يده من أرض، ليتقوى به، وتأتي سفنه من الشام. ثم سار من

(٣) جرجير: في الشمال الشرقي من منشية أبو عامر على بعد ٣ كيلو مترات من المناجاة من مركز ناقوس بمديرية الشرقية.

بلبيس إلى زِفْتيَ. وعقد بها جسراً، وبعث عيسى بن يزيد الجلودي إلى شطنوف. ولما أتت سفنه ولى عليها الجروي لمعرفته بالنيل والمعارك البحرية. وإذ أتم كل منهم استعداده، التقوا به في معركة بحرية في النيل. فانتصر أسطول ابن طاهر. وعلى أثر هذا النصر، تقدم ابن طاهر إلى الفسطاط. ونزل على خندقها لخمس خلون من المحرم سنة إحدى عشرة ومئتين. ونشب بينهم القتال. واستمرت المعارك إلى أن استأمن بعض قواد عبيد الله إلى ابن طاهر، ومعهم جمع كبير من جيشه.

وتحصن عبيد الله بن السري بالفسطاط، فحاصره عبد الله بن طاهر، وضيّق عليه حتى أشرف على الهلاك. فطلب الأمان من ابن طاهر بشروط معينة ذكرها، وبعث إليه بهدية من جملتها ألف وصيف ووصيفة، مع كل وصيف ووصيفة ألف دينار في كيس حرير، وبعث بهم ليلاً. فرد ابن طاهر ذلك، وكتب إليه: لو قبلت هديتك نهاراً قبلتها ليلاً» بَلْ أَنْتُمْ بهديَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ، أرْجِعْ إِلَيْهِمْ فلنأتينهُم بِجُنودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ منها أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرون». فعرف أنه لا يمكنه أن يرشوه.

وقدم رسول عبيد الله بالأمان له من الخليفة يوم الثلاثاء لأربع بقين من المحرم سنة ٢١١ هـ. فدخلوا في مفاوضات الصلح، قام بها محمد بن أسباط كاتب عبيد الله بن السري

على الخراج. واشترط لعبد الله شروطاً قبلها ابن طاهر. وبعث ابن طاهر إلى عبيد الله بنسخة كتاب الأمان. فنظر فيه إبراهيم بن الجراح قاضي عبيد الله فقال: ليست هذه الشروط بشيء ولكن يجب أن تشترط كذا وكذا. فقال عبيد الله له: إكتب لي كتاباً للأمان فكتبه إبراهيم بخطه. وبعث به عبيد الله إلى ابن طاهر فغضب غضباً شديداً. ولكنه اضطر إلى أن يوقع عليه، وأشهد فيه شهوداً من الجند والفقهاء وأشراف أهل مصر وجمعاً مما يُنسب إلى العدالة. وذلك في صفر سنة ٢١١ هـ.

وفي يوم الإثنين لسْت بقين من صفر سنة إحدى عشرة ومئتين توجه عبيد الله بن طاهر. فخلع عليه ابن طاهر، وأجازه بعشرة آلاف دينار وأمره بالخروج إلى المأمون فكانت ولاية عبد الله على إمرة مصر أربع سنين وسبعة أشهر إلا ثمانية أيام. وانتهى بذلك عهد آل السري في مصر، وعادت إلى الخضوع التام للخلافة العباسية.

وخرج عبد الله بن طاهر إلى الإسكندرية لمستهل صفر سنة إثنتي عشرة ومئة. فنزل على حصنها في ربيع الأول، وحصرها بضع عشرة ليلة. فخرج إليه أهلها بأمان. وصالح الأندلسيين على أن يخرجوا من الإسكندرية إلى حيث أحبوا على أن لا يخرجوا في مراكبهم أحداً من مصر، لا عبداً ولا آبقاً. فساروا إلى جزيرة أقريطش (كريت حالياً) وملكوها.

واحتفلت بغداد بابن طاهر احتفالاً كبيراً. فقد خرج من مصر، وركب البحر وتوجه إلى العراق فلما قارب بغداد، تلقاه العباس بن الخليفة المأمون، والمعتصم أخو المأمون، وأعيان الدولة وقدم عبد الله بغداد، فأكرمه المأمون. ثم ولاه بعد ذلك الأعمال الجليلة مثل خراسان وغيرها. وأشاد شعراء الخلافة بهذا الإنتصار في قصائدهم.

فقال أبو تمام أشهر شعراء ذلك العهد:

لعمري لقد كانت بمصر وقيعةٌ
أقامتْ على قَصْدِ الهدَى كلّ مائل

على الخندق الأقصى وما كان حوله
وما قد يليه من فضاءٍ وساحلِ

رأى ابنُ السري النصر أولَ يومه
وأودى بلَيْث من أبي السّرْوِ باسل

لوين جموعَ ابن السري وخيله
شماطيطَ تتري كالنعام الجوافل

فلما رأوا أن لا محيصَ وأنه
كفاح الردى في كل حق وباطل

توخّوا أمان الأرْيَحيّ ابن طاهر
فمن فارس يأتيه طوعاً وراجل

* * *

تلك هي الأحداث التي رواها المؤرخون عن هؤلاء الأمراء الثلاثة، الذين ولوا مصر وتوارثوها، دون أن يعينهم خليفة، وإنما كان الخليفة يضطر إلى الإعتراف بإمرتهم، ثم لجأت الخلافة إلى إرسال أشهر قوادها وأعظمهم لإنهاء حكمهم.

لقد ظهروا في وقت ضعفت فيه سلطة بغداد، وشاع الإضطراب في أنحاء الخلافة، فكانت فرصتهم الذهبية، فسيطروا على حكم مصر. ولكنهم ظهروا في وقت كان فيه هذا الضعف عارضاً مؤقتاً، فما لبثت الخلافة أن استعادت قوتها كاملة، وحطمت عهدهم وهو وليد.

إن رأس هذه الأسرة يتصف بما اتصف به رؤساء الدول التي اعترف بها المؤرخون. فهو مغامر طموح نهاز للفرص، يحسن الدس والمكيدة، ويجيد استغلال الأحزاب المتنازعة وضرب بعضها ببعض، والتقرب إلى هؤلاء، يبتز منهم كل فائدة وما يلبث أن يطرحهم ظهرياً، بل يقتلهم شر قتلة. فما أشبهه بأحمد بن طولون ومحمد علي.

حقاً حارب الطولونيون والأخشيديون الخلافة حرباً سافرة واستولوا على بعض أقاليمها كالشام، على حين أن أحد هؤلاء الثلاثة لم يستطع أن يستولي على مقاليد الأمور في مصر كلها، إذ نافستهم أسرة قوية أخرى، ظهرت في الوقت نفسه في تنيس. ومدت سلطانها بعض الوقت على

جميع الديار المصرية عدا رقعة ضيقة حول العاصمة الفسطاط، بقيت تحت يد آلِ السري.

وحقاً طالت مدة بني طولون والإخشيد، وقصر عهد بني السري. ولكن طول العهد أو قصره، وفتح الأقاليم المجاورة أو عدمه، وامتداد السلطة أو تقلصها، أمور ليست ضرورية في تقويم الدول. وإنما تعتبر عند تقويم قوة هذه الدول أو ضعفها. وكانت الأحوال ميسرة أمام الطولونيين والإخشيديين لضعف الخلافة فقووا ومدوا سلطانهم على حسابها. ولم يكن الأمر كذلك أمام السرَوِيين، لأن الخلافة كانت لا تزال في عنفوان قوتها.

وحقاً ازدهرت البلاد ازدهاراً كبيراً في عهد الدولتين المعروفتين. ولا نعرف شيئاً عن أحوال مصر غير السياسية في عهد السري وابنيه. ولكن ذلك لا يجعلنا نحرمهم ما هم أهل له. فلعل المراجع التي وصلت إلينا هي المقصرة التي لا تصور لنا العهد تصويراً صحيحاً، إلى جانب قلة هذه المراجع. ولعلنا لو وصلت إلينا مراجع التاريخ المصري كاملة، واجدون فيها ما نبغي من حقيقة. ونضيف إلى ذلك وجود الإمامين الشافعي وأشهب بن عبد العزيز في مصر في تلك المدة، ووجود الشعراء من بين مؤيد للسرويين ومؤيد للجرويين.

وحقاً لم يشر أحد من المؤرخين إلى دولة السرويين،

ولكن دلك ليس بالدليل القاطع. فإن كتب الأقدمين تنقسم إلى فئتين: فئة تتناول تاريخ الخلافة الإسلامية عامة كتاريخ الطبري وكامل ابن الأثير، وفئة تركز اهتمامها بمصر خاصة. أما الفئة الأولى فتخل بتاريخ مصر إخلالاً تاماً. وكان من الفئة الثانية الموجز لأنه يتناول تاريخ مصر كله، والمفصل إذ يعالج عصراً خاصاً. وإشارات الأولين قاصرة أيضاً، كما ترى في تاريخ مصر لابن إياس، وحسن المحاضرة للسيوطي، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردى أما الآخرون فهم الذين أوفوا العصور التي تناولوها بعض حقها أو أكثره. فأكثر ما أوردته عن ولاة الكندي بالنص على وجه التقريب. وكثير من الكتب التي عالجت تاريخ مصر خاصة لا زال مفقوداً. ولعل بعضها يعترف لآل السري بما يستحقون فهذا هو الكندي صاحب الولاة يؤلف كتاباً خاصاً عن السري بن الحكم. وجدير بالذكر أنه لم تؤلف كتب عن ولاة مصريين غير السري وابن طولون والإخشيد.

وصفوة القول أنني أرى وجوهاً كثيرة من الشبه بين بني السري وبني طولون والإخشيد، غير أن الصورة مصغرة عند الأولين، ومكبرة عند الآخرين. فإذا كان القارىء قد خرج من هذا المقال بما خرجت به، فإنه سيذهب معي إلى القول بأن «دولة بني السري أول دولة نالت الإستقلال الذاتي في مصر الإسلامية».



مَـمْلكة السَـاحِل

قـال ابن دقماق في كتـاب الإنتصار لـواسـطة عقـد الأمصار، وهو يتحـدث عن تنيس. «وقد كـانت كرسيـاً للجَروِيّ ملك الساحل». فما تنيس؟ ومن الجـروي؟ وما مملكة الساحل؟ وما مدى صحة هـذه العبارة؟ تلك هي الأسئلة التي يحاول هذا البحث أن يجيب عنها ، أو يضع الأسس للإجابة.

تنيس. . أسم أطلقه المصريون على ثلاث بقاع متصلة: على البحيرة التي نسميها اليوم بحيرة المنزلة، وعلى جزيرة في الشمال الشرقي من البحيرة، أي قريباً من مدينة بور سعيد الحالية، ثم على أكبر مدن هذه الجزيرة.

وصف المسعودي المنطقة فقال: «تنيس كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة، وكانت جناناً ونخلاً

(*) نشر ملخص لهذا البحث في «المجلة» السنـة الأولى ١٩٥٧، العدد العاشر.

وكرماً وشجراً ومزارع. وكانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض، ولم يرَ الناس بلداً أحسن من هذه الأراضي، ولا أحسن اتصالاً من جنانها وكرومها».

وقال المقريزي: «وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء وأكثرهم حاكة، وبها يحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا. وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له «البدنة» لا يدخل فيه من الغزل سداه ولحمته غير أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل وخياطة، تبلغ قيمته ألف دينار وليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه ـ وهو ساذج بغير ذهب ـ مئة دينار عيناً غير طراز تنيس ودمياط».

وقال الكندي: «بتنيس ثياب الديقي، والمقصور الشفاف، والأردية وأصناف المناديل الفاخرة للأبدان والأرجل، المخادّ، والفرش المعلم، والطراز».

ووصفها رحالة في زمن قريب من العهد الذي نتحدث عنه فقال: «تنيس جزيرة ومدينة جميلة.. والمدينة مزدحمة، وبها أسواق فخمة وجامعان، وقد يبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان، منها مئة دكان عطار.. وينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ووقايات ومما يلبس النساء. ولا ينسج مثل هذا القصب في جهة ما غير تنيس... وينسجون في مدينة تنيس هذه البوقلمون الذي لا ينسج في مكان آخر من

جميع العالم وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار، وتحمل أثوابه من تنيس إلى المشرق والمغرب. وسمعت أن سلطان الروم كان قد أوفد رسولاً ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مئة مدينة على أن يأخذ تنيس، فلم يقبل السلطان... ويرابط حولها دائمًا ألف سفينة منها ما هو للتجار، وكثير منها للسلطان».

تلك هي حاضرة مملكة الساحل.

* * *

والجَرَوِيّ نسبة إلى بني جَرِيّ، بطن من جُذَام، وهي قبيلة كانت تسكن المنطقة الواقعة بين الحجاز والشام ومصر، وعاونت في فتوح الشام معاونة لها قيمتها. وقدم جماعة منها مع عمرو بن العاص، وشهدوا فتوح مصر. ثم اختلطوا بقبيلة لخم ونزلوا معاً في طرابية وقربيط وصان وأبليل والعريش. ونزل بنو جرى بالفرما والبقارة والورادة، وكلها حول مركز فاقوس من مديرية الشرقية، وعلى الساحل الشمالي لشبه جزيرة سينا، في المنطقة التي تمر بها السكة الحديدية الآن. وكانت ثمرة هذا الإختلاط اتفاق القبيلتين في وجهة النظر، وفي أكثر ما قامتا به من حوادث.

وكان لجذام من القوة ما في مصر ما يسر لها التأثير الشديد في أحداثها. فلما ثار ثابت بن نعيم الجذامي في فلسطين على مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، كتب

إلى حفص بن الوليد الحضرمي وأرسل إليه وفداً من اليمانيين. فقدموا مصر، وخطبوا في مسجدها، ودعوا الناس إلى خلع مروان. فأجابهم الناس جميعاً إلا يزيد بن أبي أمية المعافري. وركبوا إلى دار الوالي، وحاصروه وأرغموه على الخروج عن مصر. وكذا فعلوا بصاحب الخراج. وكان من زعماء هذه الثورة، التي قامت ليومين بقيا من جمادي الآخرة سنة سبع وعشرين ومئة، محمود بن سليط الجذامي، وأيوب بن برغوث اللخمي.

وفي سنة ١٩١ امتنع أهل الحوف من أداء الخراج، وخرج أبو الندى مولى بَلِيّ في نحو ألف رجل، فقطع الطريق بأَيْلة وبَدا وشغْب ومَدْيَن على حدود مصر الشرقية، وأغار على بعض قرى الشام. ثم انضم إليه المنذر بن عابس الجذامي، فبلغوا مبلغاً عظيمًا من النهب والقتل.

وكان لبني جري من جذام مكانة معترف بها بين المصريين فلما ثار أهل الحوف على موسى بن مصعب الخثعمي والي مصر، وعقد القيسيون واليمنيون حلفاً بينهم، ولوا عليهم معاوية بن مالك الجروي.

وأشهر الجرويين هو الذي دعاه ابن دقماق ملك الساحل وهو عبد العزيز بن الوزير الجروي. ولم تذكر مراجع التاريخ شيئاً عن أسرته أو أبيه؛ بل لم يرد ذكر له هو البتة في تاريخ الطبري أو كامل ابن الأثير. وأول ظهور لعبد

العزيز في سنة ١٩١ هـ، إذ أرسله الحسين بن جميل والي مصر، على رأس جيش، للقضاء على عصابة أبي الندى. وكان النصر من نصيب عبد العزيز في الموقعة التي التقوا فيها بأَيْلَة على البحر الأحمر.

ثم ظهر ثانية في سنة ١٩٤ هـ، في ولاية حاتم بن هرثمة. إذ خرج عليه أهل نَتُو وغَمْى (في الجيزة وميت غمر)، وألفوا جيشاً، جعلوا على رأسه عثمان بن مستنير الجذامي، فبعث إليهم الوالي بالسَّرِي بن الحكم، وعبد العزيز بن عبد الجبار الأزدي وعبد العَزيز بن الوزير الجروي لإخضاعهم ـ وكل واحد من هؤلاء الثلاثة سيكون له شأنه في أحداث مصر التالية ـ فاقتتلوا في منتصف رمضان، فانهزم عثمان بن مستنير، وقُتل أخوه. ورجع حاتم الوالي إلى الفسطاط منتصراً، فدخلها ومعه مئة من أشراف اليمنيين رهائن، وذلك يوم الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة أربع وتسعين ومئة.

وثارت فتنة الأمين والمأمون بالمشرق، فاضطربت لها مصر، وانقسم المصريون فئتين: إحداهما عربية مع الأمين، وأخرى خراسانية مع المأمون. واستطاع الخراسانيون التغلب على حزب الأمين وإقامة عباد بن محمد والياً لثمان خلون من رجب ١٩٦، ولكن الأمين اتصل بأشراف العرب في مصر، ومَنّاهم ورغّبهم، فجندوا الجند تحت قيادة ربيعة بن

قيس الجُرَشي، وعبد الصمد بن مسلم الجرشي، ويزيد بن الخطاب الكلبي، وعثمان ابن بلادة القيسي. واستمرت الحروب بينهم سجالاً على خندق كان قد حفره عباد حول الفسطاط لحمايتها. ثم رأى عباد أن يبعث إليهم بجيش ليحاربهم في ديارهم، وجعل رياسته لعبد العزيز بن الوزير الجروي. فالتقت الجيوش بعَمْرِيط من مركز أبي حماد بمديرية الشرقية في ذي القعدة ١٩٧. فانهزم الجروي، ومضى في قومه من جذام وحلفائها من لخم إلى فاقوس. وحينئذٍ لامه قومه وقالوا: «لم لا تدعو لنفسك؟ فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض!» فاغتنم الجروي هذه الفرصة، وأسرع بتحقيق الفكرة ومضى إلى بلبيس فنزلها. ثم بعث عماله يجبون الخراج مما حولها من بلاد. ولكن ربيعة بن قيس أرسل إليه عثمان بن بلادة يمنعه من الجباية.

ولا ندري ماذا حدث في تلك الآونة، ولكن من الواضح أن مشروع عبد العزيز الجروي أخفق. إذ نراه في سنة ١٩٨ يتولى شرطة الوالي الجديد المطلب بن عبد الله الخزاعي مدة من الوقت. ثم سار ربيعة بن قيس إلى يزيد بن الخطاب، ليجتمعا على حرب المطلب. فأرسل هذا إليهم جيشاً تحت قيادة عبد العزيز الجروي، فالتقوا بشطنوف، وأرسل جيشاً آخر تحت قيادة السري بن الحكم للإقامة بالحوف، وتهديد ديار قيس الثائرة فتفرقت وسكن أمرها.

وفي شوال سنة ١٩٨ عين المأمون العباس بن موسى العباسي والياً على مصر، فقدمها ابنه عبد الله نائباً عنه. وجعل على الشرط محمد بن عسامة المعافري. ثم عزله وجعل مكانه عبد العزيز بن الوزير الجروي. ويبدو أن الجروي أراد أن ينتقم من أشراف قيس الذين حطموا آماله، فخدعهم وأسرهم وقدمهم لعبد الله بن العباس، فقتلهم يوم عيد الأضحى سنة ١٩٨ هـ.

واتخذ عبد العزيز الجروي الحيلة مطية لتحقيق أحلامه. فبعد تخلصه من أشراف قيس، ثار أهل مصر على عبد الله بن العباس لجوره وعسفه. وخلعوه وأقاموا مقامه المطلب بن عبد الله الخزاعي الذي كان حبيس عبد الله. ولما كان الجروي من أنصار عبد الله، هرب إلى تنيس. وأقبل العباس بن موسى أبو عبد الله من مكة إلى الحوف، فنزل بلبيس ودعا قيساً إلى نصرته. ثم يبدو أنه أراد الإبتعاد عن الفسطاط والإستنصار بالجروي، فمضى إلى تنيس. واستشار الجروي، الذي كره مقدمه - فيما إخال - وأراد التخلص منه، ليصفو له الجو. فأشار عليه أن ينزل دار قيس. فرجع العباس إلى بلبيس يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت من جمادي الآخرة ١٩٩هـ فما لبث أن مات بها لثمان بقين من جماد الآخرة ويقال أن المطلب دس إلى قيس، فسموه في طعامه. ويخيل إليّ أن المطلب ما كان في حاجة إلى هذا الدس، وأن بني قيس ما كانوا في حاجة إلى من

يغريهم، فإن لديهم الدافع القوي لقتله إن كانوا قد فعلوا ذلك حقاً، فقد ذكرنا آنفاً أن ابنه عبد الله قتل جماعة من أشرافهم.

وأراد المطلب استرضاء الأطراف الثائرة بمصر بعد موت العباس. فكاتب أهل الحوف، فأجابوه، فولى عليهم يزيد بن خطاب الكلبي. ثم بعث إلى عبد العزيز الجروي يوليه على تنيس، ويأمره بالحضور إلى الفسطاط. ولكن الجروي ظن أن في الأمر مكيدة تدبر فامتنع فبعث المطلب بوال آخر على تنيس، فمنعه الجروي منها. ثم سار في مراكبه حتى نزل بشطنوف. فبعث إليه المطلب بالسري بن الحكم في جمع من الجند، يسألونه الصلح. فأجابهم إليه وهو موطد العزم على الإيقاع بهم، ولكنهم كانوا متنبهين له، فلم يستطع أخذهم غدراً. فمضى راجعاً إلى بَنا على ميلين (من سَمَنّود من الغربية). فاتبعه السري وحاربه، فطلب الصلح، ولاطف السري. فخرج إليه السري في زلّاج، وخرج الجروي في مثله، فالتقيا وسط النيل مقابل سَنْدَفا (القسم الجنوبي من المحلة الكبرى القديمة)، والسري بشرقيون (القسم الشمالي من المحلة) وكان الجروي قد أعد في باطن زلاجه حبالاً، وأمر أصحابه بسندفا ـ إذ لاصق زلاجه بزلاج السري ـ أن يجروا الحبال إليهم. فلصق الجروي بزلاج السري، فربطه إلى زلاجه، وجر الرجال الحبال، فأسروا السرى. ومضى الجروي به إلى تنيس

فسجنه بها، وكان ذلك في جمادي الأولى ١٩٩ هـ.

وتفرغ عبد العزيز الجروي ليزيد بن الخطاب، فقاتله وهزمه. فبعث المطلب جيشاً على رأسه ابن عبد الغفار الجمحي لمقاتلة الجروي وجمع فيه الرجال. فلقيهم الجروي بسَفْط سَليط من المنوفية في أول يوم من رجب ١٩٩ ه. فهزمهم، وأسر ابن عبد الغفار ووجوه أصحابه.

وولى المطلب على الإسكندرية محمد بن هبيرة، فأناب عنه عمر ابن عبد الملك، المعروف بعمر بن ملّاك[1]. فوليها ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب وولى عليها أخاه الفضل. فاغتنم الجروي هذه الفرصة، فكاتب عمر بن ملاك، يأمره بالوثوب على الإسكندرية وإخراج الفضل، والدعاء للجروي بها، على أن يقدم له العون. فاستعان عمر بجماعة من الأندلسيين، كانوا قد طُردوا من بلادهم فاحتلوا بعض جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقية، وأرادوا النزول بالإسكندرية فمنعهم الولاة من ذلك. فأعانوه ودخلوا الإسكندرية، فتغلبوا على الفضل، ونصبوا عمر عليها، فدعا الجروي. ولكن الأندلسيين أساءوا السيرة بالإسكندرية، فوثب عليهم أهلها، وأخرجوهم، وخلعوا عمر، وردوا الفضل، فدعا للمطلب.

(١) الكندي: هلال. وساويرس (٢٤٩): مالك.

ثم عزل المطلب الفضل، وولى على الإسكندرية إسحاق بن أَبْرَهَة الأَصْبَحي. فسار إليه عمر بن ملّاك وقاتله في رمضان ١٩٩ هـ؛ ولكنه فيما يبدو عجز عن خلعه. وإنما عزله المطلب، وولى عليها أبا بكر بن جنادة المَعَارِفي.

وأقبل عبد الله بن موسى العباسي إلى مصر، طالباً لدم أخيه العباس، في المحرم ٢٠٠، فنزل على عبد العزيز الجروي. فسار معه في جيوش له كثيرة العدد في البر والنيل، حتى نزلا الجيزة. فخرج إليهما المطلب في أهل مصر، فتقاتلوا في صفر ٢٠٠. ولا ندري ماذا حدث في القتال، وإنما يبدو أن النصر كان حليف المطلب، إذ نرى الجروي يرجع إلى شرقيون، وعبد الله بن موسى يعود إلى الحجاز.

وظهر للمطلب أن أبا حرملة فرجاً الأسود هو الذي كاتب عبد الله بن موسى، وحرضه على الثأر لأخيه، فطلبه المطلب. فهرب إلى الجروي. فهدم المطلب دوره كلها، فدفع إليه الجروي من الأموال ما أعاد بناءها.

وجدّ المطلب في أمر عبد العزيز الجروي فشعر بذلك، ورأى الإلتجاء إلى الحيلة. فأخرج السري بن الحكم أسيره من السجن، واتفق معه أن يطلقه من سجنه، ويلقي إلى أهل مصر أن رسالة وردت من الخليفة بولايته، على أن يثور بالمطلب ويخلعه. فعاهده السري على ذلك، واتفقا جميعاً

على عقد بينهما، ولعلهما اتفقا أيضاً على أن يترك كل منهما لحليفه ما تحت يده. فأطلقه الجروي، وألقى ذكر ولايته إلى الجند. فاستقبله الخراسانيون منهم مرحبين، وعقدوا له عليهم، على حين امتنع المصريون. فنشبت بينهم حرب انتهت بفوز السري، وتوليته مصر.

وإذا تم ذلك وثب عمر بن ملاك على أبي بكر بن جنادة بالإسكندرية فأخرجه منها، ودعا للجروي بها فتركها له السري، وفقاً للعقد الذي بينهما. وأقبل الأندلسيون إلى عمر، فأذن لهم بدخول الإسكندرية. ولكنه ما لبث أن سمع أنهم أشاعوا فيها لإضطراب، فأمر بإخراجهم وإلحاقهم بمراكبهم، فحقدوا عليه.

وظهر بالإسكندرية جماعة من الصوفيين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وكان على رأسهم رجل يسمى أبا عبد الرحمن الصوفي. فخوصم في امرأة إلى عمر بن ملاك؛ فقضى على أبي عبد الرحمن. فوجد في نفسه من ذلك، وخرج إلى الأندلسيين، وألف بينهم وبين لخم، وكانت أعز قبيلة في منطقة الإسكندرية. فاجتمع منهم زهاء عشرة آلاف، ساروا إلى عمر وحاصروه في قصره. فعلم عمر أن القصر لا يمنعه منهم، وخاف أن يدخل عليه عنوة فيُفضَح في نسائه. فاغتسل وتحنط وتكفن، وأمر أهله أن يُدلّوه إليهم فَدُليّ فأخذته السيوف فقُتل. ثم دلى إليهم أخوه

محمد بن عبد الملك، فابن عمه الحارث بن عبد الواحد، فأخوه حديج بن عبد الواحد، فقتلوا جميعاً ثم انصرف المحاصرون. وكان ذلك في ذي القعدة ٢٠٠ هـ.

وقال سعيد بن عفير، شاعر عبد العزيز الجروي، في تلك المأساة:

لا يَبْعَدَنَّ ابن مَلَّاكٍ فقد ذهبتْ
منه المَنُونُ بعلْمٍ طيّبِ النَّسمِ
لا يرأمُ الضيمَ من حب الحياة ولا
يقبلُ دونَ فعال الخير بالقَسم
ولا يزال له من مجده طَرفٌ
يسندُ ما حاز عن آبائه القُدُم
ما انفكَّ يحمي ذمار اسكندريةَ في
هَدْء حميدٍ وعزّ غير مهتضَم
حتى إذا جاءه من كان يأمنهُ
وصرَّح الموتُ جَهْراً غير مكتِتمِ
خاضَ الأسنَّة والهنديّ محتسِباً
حتى تجرَّع كأسَ الموتِ من أمَم

فلما كان ثاني يوم من مقتل عمر بن ملاك، فسد ما بين لخم والأندلسيين، ونشب النزاع بينهم، واقتتلوا. وانتشرت الفتن في الإسكندرية؛ وقل الناس في الأسواق والشوارع والحمامات والبيوت. وانتهى القتال بهزيمة بني

لخم، وانتصار الأندلسيين. فعاثوا في المدينة فساداً، وقتلوا كل من لقوه من أهلها، وأحرقوا كل موضع وجدوا فيه قتلى منهم. وولى الأندلسيون على المدينة أبا عبد الرحمن الصوفي فبلغ من الفساد والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله ثم عزله الأندلسيون وولوا رجلاً منهم يعرف بالكناني.

ولما بلغ الجروي ما فعله الأندلسيون بالإسكندرية، سار إليهم في جيش ضخم يضم خمسين ألف، فنزل على حصنها، وحاصرهم حتى أجهدهم، وكاد يدخل المدينة منتصراً. وعندئذٍ خشي السري ابن الحكم أن ينتصر الجروي وتزداد قوته، فنقض العهد الذي بينهما، وبعث عمرو بن وهب الخزاعي على رأس جيش إلى تنيس، حاضرة الجروي، ليستولي عليها في غيبته وانشغاله فاضطر عبد العزيز الجروي إلى فك حصاره عن الإسكندرية والعودة إلى تنيس، وفسد ما بينه وبين السري، وكان ذلك في المحرم سنة ٢٠١ هـ. ورد الأندلسيون الجميل للسري بأن دعوا له.

وقال سعد بن عفير في هذه الأحداث، ويلوم الجروي على بطئه في فتح الإسكندرية:

ألا مَن مُبْلِغُ الجرويِّ عني
مُغلغَلةً، يعاتبُ أو يلوم

أقمتَ تنازل الأبطال حتى
تَميزَ ذو الحفيظةِ والسّؤوم
وصلتَ بهم فما وهنتْ قواهم
وطير الموتِ دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين حلوا
عليهم باد جمعهمُ المقيم
وكيف رأيت دائرة التواني
أتتك بصَحْو نحْسٍ لا يقيم
أتاك وقد أمِنْتَ ونمْتَ كيد
لِصِلّ لا ينام ولا يُنيم

وعندما ثار إبراهيم بن المهدي بالمأمون، حين اتخذ علي بن موسى الرضا ولياً لعهده، كاتب إبراهيم وجوه الجند بمصر يطلب إليهم خلع المأمون وولي عهده، والوثوب بالسري بن الحكم والي مصر من قبل المأمون. فقام بدعوته الحارث بن زرعة بالفسطاط وسلمة بن عبد الملك الطحاوي بالصعيد، وعبد العزيز بن الوزير الجروي بالوجه البحري وكان لدى الجروي سليمان بن غالب وعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي، فارين من السري، فآزراه في دعوته الجديدة. واتفقوا جميعاً على حرب السري، وأجمعوا على تنصيب عبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي والياً وقائداً لحربهم.

ونشبت المعارك المتصلة بين الجيوش المختصمة في أنحاء مختلفة من البلاد في الصعيد، والإسكندرية، والدلتا، والفسطاط. وحالف النصر السري بن الحكم في أكثر المواقع، وعبد العزيز الجروي في قليل منها، كما سبق أن ذكرت.

وفي أواخر صفر عام ٢٠٥ هـ، كان عبد العزيز الجروي محاصراً الإسكندرية حصاراً شديداً منع فيه القمح عنها، فاشتد الغلاء بها حتى صارت ويبة القمح بدينارين ودرهم، ولم يجد أهلها ما يشترونه حتى أكلوا دوابهم من الجوع. وفي آخر يوم من هذا الشهر أصابت فلقة من حجر المنجنيق الجروي، فخر صريعاً ومات بعد حصار للإسكندرية دام سبعة أشهر.

وولى الإمارة بعده ابنه «علي بن عبد العزيز الجروي» الذي ظهر لأول مرة في التاريخ على رأس الجيش الذي دخل الإسكندرية مع سلمة الطحاوي وكانت إمارته تمتد من الفرما شرقاً إلى الفرع الغربي من النيل غرباً، وإلى بلبيس جنوباً، على وجه التقريب.

وبعد توليه بثلاثة أشهر توفي خصم أبيه السري بن الحكم، وخلفه ابنه أبو نصر محمد بن السري، الذي توفي في شعبان ٢٠٦ هـ، وخلفه ابنه عبيد الله بن السري. وقد

اتصلت الخصومة في عهد الأبناء كما اتصلت في عهد الأبوين، واستمرت الحروب، وتراوح النصر بينهم. فتداول كل منهم البلاد، وخاصة المنطقة التي في شرق الدلتا ووسطها، كما أبنت في مقالي عن دولة السري.

وأخيراً تغلب الخليفة العباسي المأمون على الإضطرابات القائمة استقرت دعائم سلطته، فأراد أن يخضع مصر لكلمته، وينهي حكم آل السري والجروي. فأرسل أعظم قواده عبد الله بن طاهر في سنة ٢١٠ لاسترجاعها. ورأى علي بن عبد العزيز الجروي ألا قِبَل له بهذا الجيش، فآثر السلامة، وتلقى عبد الله بن طاهر بالأموال والهدايا، وانضم إليه عبيد الله بن السري. أما هذا فآثر المراوغة أولاً، فلم تنفعه، واضطر إلى الحرب فجعل عبد الله بن طاهر علي بن الجروي قائداً لأساطيله لمعرفته بالحرب في البحر، فهزم أسطول عبيد الله بن السري. وانتهى القتال باستسلام عبيد الله، فانتهت دولة آل السري والجروي معاً، وأخرج عبد الله بن طاهر الجميع معه إلى العراق.

ولم تنته القصة بهذا الفصل، بل كان لها فصل ختامي من ذيولها. قيل أن عبد العزيز بن الوزير الجروي لم يكن يفتر عن قتل الناس وأخذ أموالهم. وكان يدفن ما يأخذه من الأموال ليلاً في الأرض. فإذا دفنه قتل الذين دفنوه معه حتى لا يبقى من يعرف مكانه. فجمع أموالاً طائلة،

وخاصة إذا ذكرنا غنى المنطقة التي شملتها إمارته. وورث ابنه علي هذه الأموال. وفي ذي القعدة **٢١٥ هـ**. قدم مصر الأفشين من قبل المعتصم، ومعه علي ابن الجروي، وقد أمر الأفشين أن يطالب علياً بالأموال التي عنده، فإن هو دفعها إليه وإلا قتله. فطالبه الأفشين بالأموال فلم يدفع إليه شيئاً فقدمه بعد الأضحى بثلاث فقتله.

وجرت هذه الأموال بلاء عظيّا على كثير من المصريين فقد قدم مصر في ربيع الأول **٢٣٥ هـ**، يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرَة والياً على بريد مصر. وأمر بالنظر هو ومحمد بن أبي الليث قاضي مصر. في أموال الجروي، التي شاع أنه أودعها لدى بني عبد الحكم، وزكريا بن يحي الحَرَسيّ المعروف بكاتب العمري، وحمزة بن المغيرة، ويزيد بن سنان، ومحمد بن هلال. فحضر محمد بن أبي الليث المسجد الجامع، ونودي في الناس: «من كانت عنده شهادة عليهم فليحضر» فحضر جمع كثير فشهدوا شهادات مختلفة فيما يبدو. وأقام المتهمون شهوداً بأن الجروي أخذ منهم أمواله وأبرأهم فمال نحوهم قوصرة، وتحامل عليهم ابن أبي الليث وكتب إلى العراق يذكر أن قوصرة مال نحوهم. فوردت رسالة الخليفة بصرف قوصرة عن البريد، وخروجه إلى الشام ولكن كثيراً من الشكاوي في ابن أبي الليث رفعت إلى المتوكل فأرسل رسالة إلى قوصرة يرده إلى مصر، وهو في الطريق إلى الشام فرجع إليها وأمر بالكشف عن ابن أبي

الليث والنظر في أمره. ثم حبسه وولده وأعوانه وصادر أموالهم.

وفي ليلة الأربعاء لليلة بقيت من ربيع الآخرة ٢٣٧ قدم يزيد التركي ومعه عبد الله بن عبد العزيز الجروي، في طلب هذه الأموال. فأطلق سراح ابن أبي الليث يوم الخميس لست خلون من جمادي الأولى، وخلى أولاده وأعوانه. وأمره أن يحكم في أموال الجروي على ما ثبت عنده. فحكم على بني عبد الحكم بـ ١,٤٠٤,٠٠٠ دينار، وعلى زكيرياء بن يحي بثمانية آلاف دينار، في يوم السبت لثمان خلون من جمادي الأول. ودفع القضية إلى يزيد التركي، فألزم بني عبد الحكم وزكرياء المال، إلى أن ينظر فيها عند محمد بن هلال، ويزيد بن سنان، وحمزة بن المغيرة. ونادى منادي الوالي خُوط عبد الواحد بن يحي ويزيد التركي في أموال الجروي وكشفها، فمَن كتمها ضُرب ٥٠٠ سوطاً وهُدمت داره فأقر عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم بمال عنده فبُعث به إلى منزله فلم يخرج شيئاً فردّ إلى يزيد، فعذبه، فمات في عذابه لأربع بقين من جمادي الأولى. وأقر قبل موته أن قوصرة أخذ من هذا المال تسعة آلاف دينار. وأقر محمد بن هلال أن قوصرة أخذ منه ١٢٠٠٠ دينار، وأن ابن أبي عون صار إليه منه ١٦٠٠٠دينار، وإلى عيسى بن صفوان النصراني كاتب قوصرة ٦٠٠٠ دينار، وأن عنده نيفاً وثلاثين ألفاً لبني عد الحكم، وأن

جميع ما خرج عن يده إنما هو مما كان لبني عبد الحكم وزكـرياء. فاستصفيت أمـوالهم جميعـاً، ونهبت منـازلهم، وملئت السجون منهم.

ثم ورد كتاب المتوكل في رجب برد محمد بن أبي الليث وأصحابه إلى السجون وإطرق بني عبد الحكم وزكرياء وابن هلال. فسجن الأولون وصودرت أموالهم، وأطلق سراح الآخرين وردت إليهم أموالهم. ثم ورد كتاب المتوكل إلى خوط بحلق رأس ابن أبي الليث ولحيته، وضربه بالسوط، وحمله عـلى حمار بـإكاف، وإطـافته بـالفسطاط عـلى هذه الصورة. ففعل ذلك به يوم الإثنين لإحدى عشرة بقيت من رمضان ٢٣٧ هـ.

* * *

وإذن فمملكة الساحل هي التي قال عنها ساويرس في سير بطاركة الإسكندريـة (٢٤٨): «ولما وقـع الخلاف بين الأخوين [الأمين والمأمون]. خرجوا الخوارج على المملكة بمصر، وجبوا الخراج لنفوسهم، وكـان من جملتهم رجل يسمى عبد العزيز الجروي، أخذ من شطنوف إلى الفرما وشرقية مصر بلبيس وأعمالها». وإنما تستحق عبارته شيئاً من الإصلاح والدقة على ضوء الأحداث التي عرفنا أخبارها. فهذه المملكة كانت تمتد على ساحل مصر على بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)، وكانت تبسط سلطانها أحياناً على

الإسكندرية، وأحياناً تتخلى عنها، بل تخلت مرتين عن جميع الساحل. وانكمشت في بقعة ضيقة بعد العريش. ومدت سيطرتها جنوباً حتى بلبيس، بل حتى أبواب الفسطاط أحياناً، بل استولت على الصعيد مدة من الزمن، ولم تترك لآل السري إلا بقعة صغيرة حول الفسطاط.

وامتدت هذه المملكة في الزمن، بغض النظر عن المقدمات الفاشلة لها، منذ المحرم ١٩٩ هـ إلى أواخر ٢١٠ هـ، أي قريباً من اثنتي عشرة سنة. وهي المدة التي سادت فيها الفتن في العالم الإسلامي بسبب النزاع بين الأمين والمأمون وما تلاه من ألوان النزاع، وضعفت سلطة الخلافة على الأقاليم.

* * *

وختام القول أننا حقاً أمام إمارة تنشأ على ساحل مصر الشمالي دون إذن من خليفة، وإنما يضطر الخليفة إلى الإعتراف بها. ويرث هذه الإمارة ابن عن أب، ويسيِّران أمورها مستقلين عن السلطة المحلية في الفسطاط، وعن السلطة الكبرى في بغداد. حقاً أنها إمارة صغيرة، وضعيفة، تضطر إلى الإعتماد على الحيلة والخداع، ولا تستطيع الوقوف في وجه ولاة بغداد وجيوشها فتداريهم وتخادعهم. ولكن ذلك لا يحرمها حقها في الإمرة، ويجعلنا نخطِّىء ابن دقماق في عبارته. ولعلنا حين نعثر علي مراجع أخرى في

تاريخ مصر نزداد اقتناعاً بهذا الرأي. وإذن فإمارة الجرويين أو «مملكة الساحل» هي أول إمارة مصرية صميمة على قسط من الإستقلال في مصر الإسلامية، وإذن فعبد العزيز بن الجروي أول مصري مسلم يؤلف إمارة مصرية.



الخلافة المصرية الأولى

لا . . . ليست هي خلافة العباسيين التي أقامتها مصر بعد أن قضى المغول على خلافة بغداد، فتلك خلافة متأخرة كثيراً، ولم يكن لها من القوة شيء. وليست هي خلافة الفاطميين التي أقامتها مصر بعد دخول الفاطميين منافسة لخلافة بغداد، فتلك خلافة متأخرة أيضاً. وليست هي الخلافة التي أرادت مصر إقامتها في أيام أحمد بن طولون استدعاء الخليفة العباسي المعتمد إليها، فتلك محاولة لم تتم، بل قضى عليها في بدايتها.

حقاً ليست خلافة عباسية ولا شيعية، وإنما هي خلافة معادية للفريقين، خلافة أموية؛ وإن شئت الدقة خلافة مروانية، ليست مجتلبة ولا دخيلة، وإنما أقامها مصري خالص المصرية.

فقد نصب مروان بن الحكم بعد دخوله مصر أيام النزاع

(*) نشر هذا البحث في «المجلة»، السنة الأولى، العدد السادس.

بينه وبين الزبيريين، ابنه عبد العزيز بن مروان والياً عليها، وجعله الخليفة بعد عبد الملك بن مروان.

ومكث عبد العزيز شبه ملك مستقل في مصر حوالي إحدى وعشرين سنة (٦٥ ـ ٨٦ هـ)، وعاش معظم أبناء عبد العزيز في مصر بعد وفاة أبيهم، وصاروا أشراف بني أمية فيها.

ولما آلت مصر إلى العباسيين قتلوا جماعة كبيرة من سلالة عبد العزيز بن مروان، ولكن جماعة منهم اختفوا بالصعيد وإفريقية فنجوا، ثم رجع كثير منهم بعد أن كف العباسيون عن طلبهم. وعندما قدم مصر علي بن محمد العلوي، ودعا بها للعلويين سنة ١٤٤ هـ التف حوله جماعة من المروانيين، وعاونوه، وكان منهم دحية بن مصعب[١] بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان. ولكن هذه الحركة أخفقت وعادت أمور مصر إلى السكون.

وفي الولاية الأولى لإبراهيم بن صالح العباسي على مصر (١٦٥ ـ ١٦٧) خرج دحية بن مصعب المذكور آنفاً على العباسيين بالصعيد وامتنع عن إرسال الجزية والخراج إلى الوالي، ثم أقام خلافة مروانية بالصعيد، ونصب نفسه

(١) يختلف المؤرخون في هذا الإسم، فجعل خينا المصعب، وهو المشهور في الأسماء، وجعل في أكثر الأحيان المعصب.

خليفة. ولا ندري ما الذي شغل إبراهيم بن صالح حتى تراخى عنه، ولم يحفل بأمره فاستفحل خطره وقويت خلافته فاستولى على عامة الصعيد.

وبلغت الأنباء الخليفة المهدي في بغداد، فسخط على إبراهيم بن صالح وعزله عزلاً قبيحاً في سابع ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ. وصادر أمواله وأموال عماله. فأخذ منهم ثلاث مئة وخمسين ألف دينار. وأرسل موسى بن مصعب الخثعمي والياً على مصر.

وأراد الوالي الجديد أن يعبيء كل ما في البلاد لحرب دحية ابن مصعب. فتشدد في استخراج الخراج، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولاً، وفرض دراهم على أهل الأسواق والدواب فكرهه الجند وأهل مصر وقال قائلهم.

لو يعلم المهدي ماذا الذي
يفعله موسى وأيوب
بأرض مصر حين حلاّ بها
لم يتهم في النصح يعقوب

ولما بعث موسى بن مصعب عماله على الحوف، منعه أهله وأخرجوهم، وأعلنوا العصيان. وعقد القيسيون واليمنيون منهم حلفاً بينهم، وأهملوا عداوتهم المأثورة،

وولوا عليهم معاوية بن مالك الجروي. ولعلهُم اتصلوا بدحية بن مصعب واتفقوا معه.

وإذا رأى موسى بن مصعب ذلك أراد أن يضرب الفريقين معاً. فأرسل إلى دحية جيشاً من خمسة آلاف تحت قيادة عبد الرحمن بن موسى اللخمي، وخرج هو على رأس جيش آخر لقتال أهل الحوف.

أما دحية فكان مقيمًا بالجانب الشرقي من النيل، وعندما بلغته أخبار الجيش القادم لقتاله، أناب عنه في هذا الجانب يوسف ابن نصير التجيبي، وانتقل إلى الجانب الغربي بعيداً عن جيش عبد الرحمن بن موسى القادم لحربه سائراً على الضفة الشرقية للنيل. وأخذ التجيبي نائب دحية يغير على جيش اللخمي ويناقشه دون أن يشتركا في قتال حاسم. فأتاح بذلك الفرصة لدحية أن يتصرف ما شاء في الجانب الغربي من الوادي. ولما رأى عبد الرحمن اللخمي ذلك ويئس من الإشتراك في حرب حق. طلب إعفاءه من قيادة جيشه وأناب عنه بكار بن عمرة، فأعفى.

وأما أهل الحوف فراسلوا وجوده جند الفسطاط السائرين مع موسى، وذكروهم بما فعله معهم، وظلمه، وارتشاءه، وكراهيتهم جميعاً له. فمالوا نحوهم وعاهدوهم أن ينخذلوا عنه عندما يشتبكون في القتال. ومضى موسى بن مصعب في جند مصر كلهم، وفيهم وجوه الناس. وسار حتى نزل

الغُرَيراء (من مركز شبين القناطر بمديرية القليوبيه) وأقبل إليهم أهل الحوف من قيس واليمن. فلما اصطفوا ونشب بينهم القتال، انهزم أهل مصر جميعاً وتركوا موسى فبقي في طائفة يسيرة ممن كان قدم من بغداد بهم. فقُتلوا في شوال سنة ١٦٧ هـ. وعاد جند مصر إلى الفسطاط لم يجرح معهم أحد. ولما بلغ المهدي مقتله قال: نُفيت من العباس أو لأفعلن بأهل الحوف كذا وكذا. ولكنه مات قبل أن يثأر منهم.

وقال سعيد بن عفير في تلك الموقعة:

ألم ترهم الوَتْ بموسى سيوفَهم
وكانت سيوفاً لا تَدين لُمتْرَفِ
فما برحت فيه تعود وتبتدي
إلى أن تروّي من حِمامٍ مذفف
فأصبح من مصرٍ وما كان قد حوى
بمصر من الدنيا سَليباً بنَفنَف
ولكن أهل الحوف لله فيهمُ
ذخائر إنْ لا يُنفِدِ الدهر تُعرَف

وولى مصر عسامة بن عمرو المعافري فكتب دحية بن مصعب إلى نائبه في الضفة الشرقية يوسف بن نصير التجيبي يأمره بالمسير إلى الفسطاط. وعندما وصلت الأنباء إلى عسامة

بعث إليه أخاه بكاراً، فالتقيا في بركوت من مديرية الجيزة. فتحاربا يومهما كله ثم نادى يوسف بكاراً: «يا بن أم القاسم، أخرج إليّ». فقال: ها أنا ذا يا ابن وهبة» فقال: «أبرز إليّ وأبرز إليك». فأينا قتل صاحبه كان الفتح له فبرز بكار فوضع يوسف الرمح في خاصرته، ووضع بكار الرمح في خاصرة يوسف فقتل كل منهما الآخر. ورجع الجيشان منهزمين في ثالث ذي الحجة سنة ١٦٨ هـ.

وعزل المهدي عسامة بن عمرة المعافري، وولى على مصر الفضل بن صالح العباسي. فدخلها يوم الخميس سلخ المحرم سنة ١٦٩ هـ في جيش عظيم أتى به من الشام: على أهل قنسرين عنبسة بن سعيد الجرشي، وعلى أهل حمص جهم بن عبد العزيز البهراني، وعلى أهل دمشق عاصم بن محمد، وعلى أهل الأردن قطبة بن سعيد القيني، وعلى أهل فلسطين زيادة بن فائد اللخمي.

وأسرع المصريون إلى الإنضمام إلى دحية، وكاتبوه ودعوه إلى دخول الفسطاط. فجند الفضل بن صالح الجنود، وأعد العدة ونصب على كل جماعة قائداً منهم. وبعث الجيوش لمقاتلته في البر والنيل. وأرسل دحية جيشاً عظيمًا فأقبل يكر ويفر لا يعرض له شيء إلا هده. فالتقت الجيوش في بُوَيط (من مركز البداري بمديرية أسيوط) فانهزم جيش دحية، وتفرق أصحابه.

ولما بلغت أخبار الهزيمة دحية اضطر إلى الإبعاد في طائفة ممن معه إلى الواحات، ليكون في منأى من جيش الخلافة العباسية، وكان أهل الواحات ممن يؤمنون بمذهب الخوارج. فتظاهر دحية بأنه أخ لهم في المذهب ليحوز رضاهم ويضمن عونهم، وأرسل إليهم يدعوهم إلى القيام معه. فأجابوه: «إنا لا نقاتل إلا مع أهل دعوتنا» فبعث إليهم دحية: «أنا على مذهبكم». فصدقوه وانضموا إليه.

ويبدو أن الوالي العباسي استطاع أن يخمد ثورات أهل الوجه البحري فتفرغ لدحية في الصعيد. فأرسل إليه جيشاً للقضاء على خلافة دحية قضاء تاماً. ولكن هذا خرج إليه فيمن معه ومن انضم إليه من أهل الواحات. واشتبكا في معركة عنيفة كان النصر فيها حليف دحية، وإن خسر بعض أقاربه.

غير أن لسوء حظه لم يستطع أن يتغلب على ما انحدر إليه من التقاليد الأموية. فوجه سياسته توجيهاً عنصرياً كما فعل أسلافه من قبل فآثر العرب وميزهم وقدمهم على البربر وأهل الواحات ممن كان يسكن تلك المناطق. فكرهوا حكمه، وعرفوا أنه ليس بخارجي. وقالوا له: «هذا ظلم! ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمان» فامتنع دحية وقال لهم. «والله ما أرجو الجنة إلا بالرحم بيني وبين عثمان». فانصرفوا عنه وتركوه.

ولما بلغت أنباء هذا التفرق جيش الوالي المهزوم، عاد إلى قتال دحية، موقناً بنصر رخيص عليه. ولكن أنصار الخلافة المروانية استماتوا في القتال، ودافعوا عن خلافتهم دفاعاً مجيداً، شاركت فيه المرأة المصرية الرجل، فقد قاتلت نُعْم زوجة دحية قتالاً جعل شاعر الخلافة الجديدة يقول:

فلا ترجعي يا نعم عن جيش ظالم
يقود جيوش الظالمين ويجنُبُ
وكُرّي بنا طَرْدا على كل سابح
إلينا منايا الكافرين يقرب
فيومٌ لنا لا زلت أذكر يومنا
بفاوَ. ويوم في بُوَيط عَصَبْصَب
ويوم بأعلى الدير كانت نحوسه
على فيئة الفضل بن صالح تنعب

واستمر الوالي العباسي يرسل إلى دحية بن مصعب الجيش بعد الآخر، بفضل ما يأتي به من جيوش من أرجاء الشام المختلفة إلى جانب جند مصر، حتى استطاع في آخر الأمر أن يهزمه ويأسره ولما قدمت به الجنود إلى الفسطاط، ضرب عنقه، وصلب جثته. وبعث برأسه إلى الهادي في جمادي الآخرة عام ١٦٩ هـ. وكان ذلك الوالي يفتخر بعد فيقول: «أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامي في أمر دحية وهزيمته وقتله، وقد عجز عنه غيري، وكاد أمره يتم لطول

مدته ولاجتماع الناس عليه لولا قيامي في أمره»!

وعلى هذه الصورة انتهى أمر دحية بن مصعب بن الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان. فانتهت الخلافة المروانية المصرية، وانتهت أول خلافة عرفتها مصر، وبغداد في أوج عظمتها.

ولم تكن هذه المحاولة الوحيدة لإقامة خلافة في مصر تنافس خلافة العباسيين في بغداد، بل تبعتها محاولات أخرى، أرادت أن تقتفي آثارها لعلها تنال من النجاح ما لم تنل محاولة دحية.

فقد ولي الخليفة الهادي علي بن سليمان العباسي على مصر، صلاتها وخراجها. فدخلها في شوال سنة تسع وستين ومئة، وكان علي هذا عادلاً فيه رفق بالرعية، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر كثير الصدقة بالليل، منع الملاهي والخمور فمالت الناس إليه. فلما رأى حبهم إياه والتفافهم حوله. طمع في الخلافة وحدثته نفسه بالوثوب على الخليفة هارون الرشيد، وكان قد ولي الخلافة بعد موت أخيه؛ وأظهر للناس صلاحيته للخلافة. فكتب إليه بعض أهل مصر ممن يشايعه، وأعلمه خبر علي بن سليمان. فسخط عليه الرشيد، وعاجله بالعزل، في يوم الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة ١٧١ هـ. وذكر هذه المحاولة الكندي وابن تغري بردى.

وعقبت ذلك محاولة ثالثة ذكرها الطبري (٣: ٦٢٦) وابن الأثير (الكامل ٦: ٨٥) وابن تغري بردى (النجوم الزاهرة ٢: ٧٨)، فقد خلف علي بن سليمان السابق ذكره موسى بن عيسى العباسي، وكان رجلاً عاقلاً جواداً ممدحاً، فيه رفق بالرعية وتواضع، تقلب على ولايات شتى فاستمال المصريين عربهم وقبطهم إلى أن عزله الخليفة الرشيد لأربع عشرة خلت من شهر رمضان عام ١٧٢ هـ، بعد ولاية دامت سنة واحدة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً.

ثم ولاه الرشيد مصر ثانية، فقدمها في السابع من صفر سنة ١٧٥ هـ. وفي هذه المرة حدثته نفسه بالخروج على الرشيد وعزم على خلعه والدعوة لنفسه فبلغ الرشيد ذلك فقال: «والله لا أعزله إلا بأخس من علي بأبي!» وقال لجعفر بن يحي: «ولِّ مصر أحقر من علي بأبي وأخسهم» فنظر فإذا عمر بن مهران كاتب الخيزران، وكان أحول مشوه الخلقة يلبس ثياباً خشنة، وكان يشمر ثيابه ويقصر أكمامه، ويركب بغلاً عليه رسن ولجام حديد، ويردف غلامه خلفه. فدعا به فولاه مصر. فسار إليها، فدخلها وخلفه غلام على بغل للأثقال. فقصد دار موسى بن عيسى فجلس من أخريات الناس فلما انفض المجلس، قال موسى «ألك حاجة؟» قال: نعم. ثم دفع إليه الكتب فلما قرأها قال: «هل يقدم أبو حفص أبقاه الله؟ قال: «أنا أبو حفص». قال موسى:

«لعن الله فرعون حيث قال: أليس لي ملك مصر؟» ثم سلم له العمل، ورحل في ٢٨ من صفر سنة ١٧٦. ولم يبق عمر بن مهران هذا والياً لمصر مدة طويلة.

ويقول بعض المؤرخين أنه كان في هذه المدة نائباً عن جعفر ابن يحي البرمكي الذي ولي عليها بعد خلع موسى.

المقاومة القولية

تنوعت ألوان المقاومة التي أبداها المصريون، وحاربوا بها كل من لم يرضوا عنه من خلفاء وأمراء. واصطبغ بعض هذه الألوان بالحمرة القانية، وبعضها بالحمرة الخفيفة، وبعضها بالبياض الناصع. ولا يهمنا في هذا البحث غير اللون الأخير، بل صنف معين منه، هو ما قد نسميه المقاومة اللسانية أو المقاومة القولية، وأعني به المقاومة باللسان أو القول. وطبيعي أن تنقسم هذه المقاومة إلى نوعين: شعري ونثري.

وجدير بنا أن ننبه سلفاً أن القسط الأغلب من الشعر المصري الذي وصل إلينا من هذه المدة التي ندرسها شعر متصل بالأحداث التي تقلبت على المصريين، وأقله شعر ذاتي قاصر على المشاعر الشخصية لقائليه. وليس هذا بالدليل القاطع على أن المصريين لم يفرغوا لأنفسهم، وينكبوا على

(*) نشر هذا البحث في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة - المجلد الثامن عشر - الجزء الثاني - ديسمبر ١٩٥٦.

أحاسيسهم، ويعبروا عنها شعراً فربما فعلو ذلك، ولكن هذا الشعر لم يصل إلينا لسبب من الأسباب. نضيف إلى ذلك أن أكثر هذا الشعر محفوظ في المصادر التاريخية لا الأدبية، وبديهي أن هذه المصادر لا تعني إلا بما يحقق أهدافها وأغراضها، ويشهد لأقوالها وحوادثها، وهو الشعر الخاص بأحداث التاريخ.

ونستطيع أن نرى عناصر مقاومة المصريين الشعرية في أغراض شتى من أغراض الشعر، ولكنها تظهر جلية في الهجاء، والرثاء والفخر، والإستنفار. ولذلك نقصر الكلام عليها.

وأول أمثلة الهجاء ترجع إلى سنة ٨٦ هـ، حين ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان، فغلت الأسعار، وتشاءم به المصريون وزعموا أنه ارتشى. وخرج عبد الله إلى الشام وافداً على أخيه الوليد، فانتهز الشاعر المصري زرعة بن سعد الله ابن أبي زَمزَمة الفرصة، وقال:

إذا سار عبد الله من مصرَ خارجاً
فلا رجعت تلك البغالُ الخوارجُ
أتى مصرَ والمكيالُ وافٍ مغربل
فما سار حتى سار والمدُّ فالج

فلما بلغت الأبيات عبد الله، أهدر دمه. فهرب الشاعر

إلى المغرب، وكتب إلى الوليد:

ألا لا تـنـهَ عـبـد الله عـني
كـما قـد قـال يجعلني نـكـالاً
ولم أشـتم لـعبـد الله عـرضـاً
ولم آكـل لـعـبـد الله مـالاً

وليست الحالة السابقة الوحيدة التي اتهم فيها الشعراء الأمراء بالرشوة والتسبب في الغلاء كما لم يتهم زرعة وحده الأمير عبد الله بهذه التهمة، بل فعل ذلك عبد الله بن الحجاج، ورجل لم يذكر اسمه من قريش.

وتعدى الشاعر المصري الأمـير بالهجـاء، فهجا الأمـير وصاحب الخراج ونوابهما. وقال سعيد بن عفير:

ما كنت أحسب أن الحِين يجمع ما
أمسي بمصر من الأنذال في الإِمَر
أمـا الأمـير فحنـاج وصـاحبـه
عـلى الخراج سَـواديٌّ من الأُكَـرِ
هذا الُهنائي من الفسـطاط يخلفُه
والعـامـليّ عـلى أعمـالـه الأُخَـرِ
كـل لصـاحبـه شكـل يـلائمـه
فهـم سـواسية في اللؤم كـالُحُمُـر
ومـا هُنـاءة إلا ظِلفُ ذي يَمَن
والعامليون مأوى اللؤم من مُضَر

فـما يسـوغ لنـا عيش فينفعنـا
مع ما نرى لهمُ من رقة الخـطر

وكثر في هجاء المصريين تعيير الأمراء بالهزيمة فيها اشتبكوا فيه من وقائع حربية. قال أبو بجاد الحارثي يهجو السري ابن الحكم عندما هزمه عبد العزيـز بن الوزيـر الجروي بشطنوف وقتل ابنه ميموناً:

جَمّـع رعـاعـك يـا سـريُّ فـإنها
حـرب تحسّ سعيـرَهـا قحـطانُ
قتلوا أبـا حسن وجـرّوا شِـلوَه
كـالكلب جـر بشلوه الصبيـان
ولت تُجيب وأسلمتـه جيـادهـا
يـلان يـوم تـواكـلت عيـلان
فـاستخـرجـوه مـلبَّـا فـأتـى
يجـري ويَهرج حـولـه السـودان
لا تبْـك فالعقبى لإخـوتـه غـداً
أو بعـده، فكمـا تـدين تـدان

وكانت الحروب المستعرة الأوار بين السري والجروي مصدراً ألهم الشعراء كثيراً من القصائد المتنوعة.

ولم يـرض الشاعـر يحي بن الفضل عن عنبسـة بن إسحاق الضبي الوالي، وكان يذهب إلى المسجـد دون

موكب، وينادي بالسحور في شهر رمضان، ويتهم بمذهب الخوارج، فقال:

مَنْ فتى يبلغ الإمام كتاباً
عربياً ويقتضيه الجواباً

بئس والله ما صنعت إلينا
حين وليتنا أميراً مصاباً

خارجاً يَدين بالسيف فينا
ويرى قتلنا جميعاً صواباً

مرّ يمشي إلى الصلاة نهاراً
وينادي السحور، ضلّ وخاباً

ثم نزلت الروم دمياط يوم عرفة من ولايته. فاستولوا عليها، وقتلوا بها جمعاً كبيراً من المسلمين والنصارى. فنفر إليهم عنبسة فلم يدركهم. ومضى الروم إلى تنيس فأقاموا بأشتومها، فلم يتبعهم عنبسة. فبعث يحي بن الفضل للخليفة المتوكل:

أترضى بأن توطأ حَريمك عنوة
وأن يستباح المسلمون ويحربوا

حمار أتى دمياط والروم وثب
بتنيس منه رأيَ عين وأقرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما
أصابوه من دمياط والحرب تُرْتَب

فلا تنسنا إنا بدار مَضيعة
بمصر وإن الدين قد كاد يذهب

وأوضح أن الشاعر المصري كان يعتمد في هجائه على السخرية والإضحاك ممن يهجوه، وإبرازه في صور فكهة.

وظهرت روح المقاومة في رثاء الشاعر المصري من ينزل بهم الوالي عقابه. ووصلت إلينا أمثلة من هذا اللون من الرثاء من العصرين الأموي والعباسي فقد اغتال مروان بن الحكم - حينما استولى على مصر واستخلصها من أيدي الزبيريين - الأكدر بن حمام سيد لخم، وكادت تنشب ثورة عارمة يهلك فيها مروان لولا أن حماه بعض المصريين. وقال زياد بن فائد اللخمي يرثي الأكدر:

كما لقيْت لخم ما ساءها
بأكدَر، لا يَبعدنْ أكدرُ
هو السيف أُجردَ من غمده
فلاقى المنايا وما يشعر
فلهفي عليك غداة الردى
وقد ضاق وِرْدُك والمصدر
وأنت الأسير بلا مَنعة
وما كان مثلك يستأسر

وفي أواخر العصر الأموي قامت ثورة كبيرة بمصر، فأتى إليها جيش كبير؛ على رأسه حَوْثرة بن سهيل الباهلي،

فاستطاع أن يخمد الثورة، ويقتل رؤساءها، ويغتال بعضهم الآخر، فأرسل الشعراء الأشعار في رثائهم، قال مرسل بن حمير مثلاً:

يا حفصُ يا كهفَ العشيرة كلها
يـا خا النـوال وساتـر العـوراتِ
إمـا قُتلتَ فأنت كنتَ عميـدهم
والكهف لـلأيتـام والـجـارات
أودي رجـاء، لا كمثل رجـائنـا
رجـلٌ، وعقبةُ فـارج الكـربـات
وشبـابنا عمـرو وفهد ذو النـدى
وابن السليط وعـامـر الغـارات
قُتلوا ولم أسمع بمثل مصـابهم
سَـرَواتُ أقـوام بنـو سـروات

وكما كانت ثورات السري والجروي مصدر الكثير من قصائد الهجاء، كانت أيضاً منبعاً لأشعار الرثاء، التي تبكي من قتل فيها من الرؤساء. قال سعيد بن عفير يرثي هبيرة بن هاشم بن حُدَيج وكان من رؤساء المصريين الـذين تحترمهم جميع الأحزاب والجماعات بمصر:

لعمـري لقد لاقى هبيـرة حتفـه
بأفضل ما تلقى الحتوف السوارع

بأنف حميٍّ لم تخالطه ذلة
وعرض نقي لم تشنه المطامع
عشيةَ يستكفيه مطلبُ الذي
به ضاق ذرعا والمنايا كوارع
فما انفك يحميه ويجعل نفسه
له جنةً حتى احتوته المصارع
فلاقي المنايا فوق أجرَد سابحٍ
وفي الكف مأثور من الهند قاطع
فبينا يخوض الهول من غمراته
وأعداؤه من حوله قد تخاشعوا
تقطّر في أُهوية عن جواده
فصادفه حَيْن من الموت واقع
فلم أر مقتولاً أجل مصابه
على من يعادي والذين يجامع
من ابن حديج يوم أعلن نعيه
وقام به في الناس وراءٍ وسامع
فولوا فلولا قد علتهم كآبة
وكلهمُ بادي التلهف جازع

ولم يبك الشاعر المصري الرجال وحدهم بل بكى غير الرجال أحب وأنزل به الحاكم المكروه مثال ذلك أن مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين، عندما فر إلى مصر من العباسيين اجتاز النيل من الجانب الشرقي إلى الغربي،

وأمر بدار آل مروان المذهبة فأحرقت كيلا يستولي عليها العباسيون وأحرق الجسور التي على النيل أيضاً. فبكى عيسى بن شافع هذه الدار قائلاً:

يــا طللاً أقــوى وحــلّ البـلى
منــه لــدى العُلْو وفي السُّفْــل
قــد كنت مغَنيٍّ لعيـون المهــا
وكنت مــأوى لــظُبــا الــرمــل
وكــان أربــابــك مــا إنْ لـهم
في النــاس من نوع ولا شكـل

وبكى كثير من الشعراء الدولة الطولونية بكاء حاراً بقيت لنا منه قصائد قلائل، نمثل لها بقول إسماعيل بن أبي هاشم:

قفْ وقفــة بفنـاء بــاب الســاج
والقصر ذي الشرفـات والأبراجِ
وربوع قومِ أزعِجــوا عن دارهم
بعــد الإقــامــة أيمــا إزعــاج
كانوا مصابيحاً إذا ظُلم الـدجى
يسري بها السارون في الإدلاج
وكــأن وجـوههُم إذا أبصــرتهـا
من فضــة مصبــوغــة أو عــاج

كـانوا الثـريـا لا يُـرام حمـاهُم
في كــل ملحمـة وكــل هيـاج
فـانـظر إلى آثــارهم تلقي لهم
عـلمــاً بكــل ثـنيــة وفـجــاج
وعليهمُ مـا عشتُ لا أدع البكا
مع كل ذي نـظر وطرْف سـاج

ونظم فيهم سعيد القاص قصيدته المطولة التي عالجت تاريخ الطولونيين الـزاهر، وأشـادت بمفاخـرهم، وبكت أمجادهم. قال:

جرى دمعه ما بَين سَحْر إلى نحر
ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر
وبات وقَيذا للذي خامر الحشـا
يئن كمـا أنّ الأسيرُ من الأسـر
وهل يستطيع الصبر من كان ذاأسى
يبيت على جمر ويُضحى على جمر
تتـابـع أحــداث تحيّفْنَ صبـره
وغدر من الأيام، والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدْعها
ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهر
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها
بفقد بني طولون والأنجم الزهر

فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعة
أحاديث لا تخفى على كل ذي حِجْر

وكان أبو العباس أحمد ماجداً
جميل المحيا لا يبيت على وتر

كأن ليالي الدهر كانت لحسنها
وإشراقها في عصره ليلة البدر

يدل على فضل ابن طولون همة
محلقة بين السماكين والغُفْر

ويجتمع الفخر والإستنفار في قصائد واحدة، يقولها الشعراء أبو بعض الثائرين أنفسهم يشيدون بما أتوا من أعمال، ويحثون قومهم على مناهضة الولاة والأمراء. ويتمثل هذا اللون من الشعر فيما كان يقوله أبو الندى الذي خرج على الوالي الحسين بن جميل في نحو ألف وجل من بَلِّي.

أقول إذا الرفاق بدت لوجهي
ألا حلوا رحالكُم وطيروا

وإن لم تتركوها فاستعدوا
لحرب مثل حاصبة تفور

أقول لصحبتي: كرّوا عليهم
فليس يهرُّهم إلا الكرور

ثم ينفرد ببقية أشعار الإستنفار إلى الحرب سعيد بن

عفير، الذي ينظم القصائد يحاول فيها أن يشجع الجروي، ويحثه على حرب السري وابنه، ويلومه لتباطؤه، وينصحه ألا يبقى على أحد من أسرة السري. يقول لعلي بن عبد العزيز الجروي:

ألا من مبلغٌ الجروي عني
مغلغلةً يعاتب أو يلوم
أقمتَ تنازل الأبطال حتى
تَميّز ذو الحفيظة والسؤوم
وصُلت بهم فما وهنت قواهم
وطيرُ الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين حلوا
عليهم باد جمعهمُ المقيم
وكيف رأيت دائرة التواني
أتتك بصحو نحس لا يقيم
أتاك وقد أمنت ونمت كيدٌ
لصل لا ينام ولا ينيم

ويقول له مرة أخرى حين فر أمام عبيد الله بن السري.

ألا يا علي بن عبد العزيز
إلى أين صرت تريد الفرار
فلست بأول من كاده
عدوٌ، فكرّ عليه اعتكاراً

وأجـــر مصيــرك أن يـسحـبــوا
إليــك فتــوحــاً عـظامــاً كبـاراً
فــتــدرك تــأثــرك مــن أهــله
وتلبس بعــد الـكبــوّ الـفســارا

تلك هي الموضوعات الشعرية التي ظهرت فيها عناصر المقاومة القولية من المصريين جلية بارزة. ويتضح منها أن المصري لجأ إلى الفن الذي برع فيه كل البراعة للنيل من خصومه ومقاومتهم والتشهير بهم، أعنى به السخرية والإضحاك، ويتضح أيضاً أن الشاعر المصري من أول الشعراء الذين حاولوا أن ينظموا أمجاد بلادهم والصفحات المشرفة من تاريخها، وأن يبكوا الدول التي وفرت لبلادهم الحضارة والترف والنعيم. وسبقوا بذلك إخوانهم من شعراء الأقطار العربية الأخرى. والدارس المستقصي للموضوعات الأخرى من الشعر المصري لا تخطىء عينه بعض الآثار التي تمت إلى روح المقاومة، وخاصة في المدح، كمدح الطولونيين وابن الخليج. ولكن هذه الآثار لا تبلغ ما بلغته في الموضوعات التي أفردتها بالذكر.

ويجدر بي قبل أن أطوي هذه الصفحات أن أشير إلى شاعرين تجلت فيهما روح المقاومة المصرية أبلغ التجلي. وأول هذين الشاعرين أبو عثمان سعيد بن عفير الأنصاري. وإذا أردنا أن نرسم تخطيطاً لترجمة حياته رأينا أنه ولد سنة

ست وأربعين ومئة، وتلقى العلوم الدينية في مصر وبغداد والمدينة، وصار أحد المحدِّثين الثقات. وأخذ بحظٍ وافر من العلوم الأدبية، فدرس علوم الأنساب والتاريخ والأيام. وكان إلى جانب ذلك شاعراً ذكياً سريع البديهة فصيح اللسان حسن البيان لا تمل مجالسته.

وقد اتصل بالأحداث التي وقعت في أيام السري بن الحكم وأبنائه، وعبد العزيز بن الوزير الجروي وابنه، وشارك فيها مشاركة لها خطرها. وكان شعره سلاحاً فتاكاً فيها. وكان سعيد ابن عفير يمثل الحزب المصري الخالص المصرية، ولذلك ناصر الجرويين، وهجا السري وأبناءه، وبكى كل مصري سقط في الميدان وقد رأينا عدة أمثلة من شعره، ولكني أمثل له أيضاً بقوله يحرض بني قضاعة على الثورة حين قتل الوالي أشرافهم الثائرين:

قتلوا ابن سيدهم وفارس حربهم
عن غير نائرة ولا إجرام
أضحت قضاعة قد علتها كآبة
وبنو الجريش سوافر الإظلام
فلئن قضاعة لم تطالب ثأره
بكتيبة خشناء ذات عُرام
ما في قضاعة بعدها ما يرتجي
للنائبات وما همُ بكرام

وقال يرثي عمر بن ملاك الذي قتله الأندلسيون وأنصارهم في الإسكندرية:

لا يبعدنّ ابن ملاك فقد ذهبت
منه المنون بعلم طيب النسَمِ
لا يرأم الضيم من حب الحياة ولا
يعبل دون فعال الخير بالقسم
ولا يزال له من مجده طرف
يسند ما حاز عن آبائه القُدُم
ما انفك يحمي ذمار اسكندرية في
هدءٍ حميد وعز غير مهتضم
حتى إذا جاءه من كان يأمنه
وصرح الموت جهراً غير مكتتم
خاض الأسنة والهندي محتسباً
حتى تجرع كأس الموت من أمَم

والمتتبع لما بقي من شعر سعيد يجده يدور حول رثاء كبراء المصريين الذين سقطوا صرعى الأحداث التي امتلأت بها هذه الحقبة، والإشادة بفضلهم وشجاعتهم وبسالتهم في مواجهة الموت، وتفضيلهم القتل على الحياة الذليلة، ونقاء شرفهم، ومآثرهم، وكيف قتلوا، ووجوب الثأر لهم، وحول لوم الجروي وابنه علي التواني في الحرب، وعدم انتهاز كل

فرصة للقضاء على السري وابنه، والحث على الصبر وعدم الفرار واستئصال الخصوم.

والشاعر الثاني محمد بن داود، وقد حمل لواء المقاومة في الدولة الطولونية. فألح بالهجاء على أحمد بن طولون. واقتفى خطاه فكلما أتم عملاً ما، نظم فيه قصيدة هجاء تطاس عليه وعلى عمله، وتنقص من قدره. ولست أدري سبب هذه العداوة المريرة، ولا كيف صبر أحمد بن طولون على هذا الشاعر، ولا كيف أفلت الشاعر من سطوة ابن طولون وبطشه، فالمراجع التاريخية لا تذكر شيئاً من ذلك. ولكن الخصومة كانت من العنف بحيث لم يستطع الشاعر أن يبرأ من أدرانها بعد موت أحمد بن طولون، فهجاه بأكثر من قصيدة، دون أن يكون للموت عنده حرمة.

قال محمد بن داود عندما بنى ابن طولون مستشفاه:

إلا أيهــا الأغفـال أيهــا تـأملوا
وهل يوقظ الأذهـانَ غير التـأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة
تسيَّر من سفل إليكم ومن عَـل
ولولا جنايات الذنوب لما علت
عليكم يـد العلج السخيف المجهَّل
فكم ضجة للناس من خلف سترة
تضـج إلى قلب عن الله مغفل

وقال عندما تحصن ابن طولون بجزيرة الروضة، وبنى المراكب الحربية، إذ سمع أن الخليفة قد أرسل جيشاً تحت قيادة ابن بغا لمحاربته:

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملا
ساقية زَرقاً إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجنُّ به
بالعسف والضرب ،والصناعُ في تعب
له مراكب فوق النيل راكدة
فما سوى القار للنظار والخشب
يُرى عليها لباس الذل مُذ بنيت
بالشط ممنوعة من عزة الطلب
فما بناها لغزو الروم محتسبا
لكن بناها غداة الروع للهرب

وقال فيه بعد موته:

عرِّج على اليحموم فانزل به
فأسلح على قبر ابن طولونا
وقل له: يا شر مستودَع
أخفي لدمع القلب ملعونا
يا حفرة النار التي أضرمت
وظل فيها الرجس مدفونا

لا تـجعـلي لبســة جثمـانــه
إلا الأفـاعـي والـشـعـابـيـنـا
فـعـزَّ إبـليس بـهـا أولاً
وعـزَّ من بعـد الـشيـاطيـنـا
وقـل لهم: قـد كـان يكفيكم
ويهتـك المعـروف والـديـنـا
ثـم مضى غيـر فقيـد ولا
كـان حـميـداً عـمـرَه فيـنـا

ويتضح من شعر محمد بن داود أنه كان يحمل بين جنبيه حقداً هائلاً لا يخفف منه شيء، وأنه كان عنيفاً فاحشاً في هجائه، ملأه بالصور المقذعة، ولجأ فيه إلى السخر والتهكم، واعتمد على الصور التي تصور ابن طولون في أوضاع تحط منه ومن أعماله. ولم يتورع الشاعر عن شيء يشين الأمير. فسلبه الدين والخلق والشجاعة، وجعله نصيراً للشيطان بل كافياً له.

وخلاصة القول في الشعر المصري أنه رافق المعارك. فمهد لها قبل أن تقوى، وحث الجماعة المصرية على الخروج على مالا ترضاه، وهجا من كرهته، واستنفرها إلى الثورة، وثبتها في القتال، وأشاد بمن ثبت من المصريين، وعيرّ من هرب، وطلب إليه الكر، ثم بكى المستشهدين. وكان سلاحاً فتاكاً طوعاً لبعض الشعراء، وأحدّ أسنته السخرية

والتهكم والصور الفكهة. وقد ازدهر في الأوقات التي كثرت فيها الوقائع. ولم يختف كل الإختفاء في غيرها من الأوقات، ولكنه كان أقل انتعاشاً.

* * *

واستخدم المصريون في مقاومتهم القولية سلاحاً آخر لا يقل قوة عن الشعر، ذلك السلاح هو ما اشتهر به أهل مصر قديماً وحديثاً، وكاد يكون علمًا عليهم، وهو الفكاهة والسخرية. ولم يجد هذا اللون عناية من المؤرخين، سواء القدماء والمحدثون. ولذلك لم يتسرب إلينا إلا ثلاثة أمثلة منه.

فقد ولى عبد الله بن عبد الملك مصر في سنة ست وثماني، فغلت الأسعار، وتشاءم به أهل مصر وأكثروا من الإشاعات حوله، وزعموا أنه ارتشى، وسموه بلقب يسخرون منه فيه، هو «المكيس». وبالرغم من التحريف الذي أصاب هذا اللقب في كتب التاريخ، وجعلنا غير مطمئنين إلى صيغته الحقة، فإن الصلة واضحة بينه وبين المكوس أو الضرائب ولعل المصريين أرادوا بهذا اللقب أن يلقبوا هذا الوالي جابي المكوس أو الرشاوي.

وعزم جماعة من الخوارج أن يقتلوا قرة بن شريك والي مصر (٩٠ - ٩٦ هـ)، فوشى بهم رجل يكنى أبا سليمان فكان الفقيه المصري المعروف يزيد بن أبي حبيب كلما همّ

أن يذكر شيئاً يمس الحاكم، تلفت حوله وقال: إحذروا أبا سليمان. وكان يقول: الناس كلهم أبو سليمان.

وخرج خارجي يدعى وهيباً في ولاية الوليد بن رَفاعة (١٠٩ - ١١٧ هـ)، وتتبع الوالي ليقتله، ولكن فطن له وقبض عليه وقتله. وانتشر على ألسنة القوم حينئذٍ عبارة: «أين صلاتك يا وهيب». والمراد منها غير جلي اليوم.

وليس من اليسر تتبع ما رمى به المصريون خصومهم من نوادر ونكات وما نبذوهم به من ألقاب وصفات، يسخرون بهم فيها ويتهكمون عليهم. فإن هذا اللون من المقاومة القولية ليس من الأمور التي كان المؤرخون يأبهون لها. ولكن الأمثلة السابقة تكفينا لنقول أن المصريين استخدموا هذا السلاح الذي برعوا فيه لمقاومة خصومهم.

بنو هذيل

هُذَيل قبيلة عربية كبيرة، من مُضَر، كانت تنزل مواضع متفرقة من المنطقة الممتدة بين المدينة ومكة والطائف، وخاصة البقاع الجبلية منها.

واشتهر بنو هذيل بالشعر والرماية وسرعة الجري. فقال عنهم حسان بن ثابت، شاعر الرسول، عليه الصلاة والسلام (فحولة الشعراء للأصمعي ٣٧): إنهم أشعر القبائل العربية، وعقب الأصمعي على ذلك قائلاً: «فهم أربعون شاعراً مفلقاً» وقال أيضاً: «إذا فاتك الهذلي أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه» وقال يونس بن حبيب (البيان والتبيين للجاحظ ١: ١٧٤): «وليس في هذيل إلا شاعر أو رامٍ أو شديد العَدْو».

وذكرت عدة بطون من بني هذيل في كتب الأنساب والتاريخ والأدب، نعرف منها بني لحيان بن هذيل، وبني سعد بن هذيل، وتفرع من الأخير بنو حريث، وخناعة، ورهم، وجريب، وتميم، وكاهل. وينتمي إلى كاهل،

وصبح، وكعب، وإلى تميم بنوا الحارث، ومعاوية، وبالرغم من هذا التفرع، ومن الخصومات التي قامت بين بطون هذه القبيلة، كان أكثر أفرادها يميلون إلى الأب الأكبر هذيل.

ومن الطبيعي أن تستفيد الدعوة الإسلامية من بني هذيل، القوم الجبليين الذين عاشوا على الغزو والحروب فأحسنوا القتال والرماية، فاشتركوا في الفتوح الإسلامية، وأبلوا فيها بلاء حسناً. ولم يقصروا جهودهم على ميدان واحد، بل توزعوا في الميادين المختلفة، ولكن أغلبيتهم - فيما يبدو - كانت في فتوح الشام ومصر.

وآثر كثير من بني هذيل الإستقرار في البلاد المفتوحة، ولم يعودوا إلى موطنهما الجبلي الفقير، حتى قال ابن خلدون عن قبيلتهم (تاريخه ٢ : ٣١٩): «لم يعد لها في الحجاز حي يطرق». فإذا خلصنا هذا القول من المبالغة التي علقت به - فقد بقيت سلالة الهذليين في الحجاز إلى العصر الحديث - قلنا إن جماعات كبيرة منهم استقرت خارج شبه الجزيرة العربية.

ولا تذكر المراجع تاريخ دخول بني هذيل إلى مصر، وإنما تكتفي بأن ذلك كان في عهد عمر (الأغاني ٢٠ : ١٦٧، والإصابة ١ : ١١٧). ويعرف الدارسون أن الجماعة الأولى التي دخلت مع عمرو بن العاص، قائد المسلمين الفاتحين، كانت جميعاً من عَكّ. ولكننا نستطيع أن نطمئن إلى أن

جماعة من بني هذيل دخلت مصر مع الأمداد التي بعثها عمر ليعين بها عمراً في معاركه، إذ أنه عندما فرغ عمرو من القتال، وعزم على الإستقرار بالفسطاط، منح هذيل موضعاً خاصاً بهم في مدينته.

ونستطيع أن نطمئن إلى أن هذه الجماعة الهذلية لم يفردها عمرو بن العاص بخطة خاصة بها، وإنما أنزلهم في الحمراء الوسطى مع جماعة من بنى سلامان من الأزد، وجماعة من بني عَدْوان، وجماعة من الروم الذين كانوا في الشام وأسلموا قبل موقعة اليرموك واشتركوا في فتح مصر، وكانوا يبلغون نحو مئة رجل (خطط المقريزي ١ : ٢٩٨).

وكانت مرابع جند هذيل وجاراتها متقاربة أيضاً. قال ابن عبد الحكم (فتوح مصر ١٤١): «وكانت هذيل تأخذ في بَنَا وبوصير، وكانت عدوان تأخذ في بوصير». والبلدتان كانتا قريبتين من سمنود من مديرية الغربية. فكانت هذه القبائل ترعى فيهما دوابها في الربيع.

كذلك نزل بنو هذيل بالصعيد منذ زمن مبكر قال أبو العيال الهذلي في عهد معاوية، ذاكراً أهله (ديوان الهذليين ٢ : ٢٥٥):

فاستقبلوا طرف الصعيد إقامة
طوراً، وطوراً رحلةً فتَنقَلُ

ولم يتعرض الشاعر لإسم المنطقة التي كانوا يقيمون بها في الصعيد، ولكن عمر رضا كحالة يذكر أنهم نزلوا طوخ الخيل (من مديرية المينا الآن)، وإخميم. فلعل الشاعر أشار إلى هذين الموضعين أو أحدهما، وربما كان يشير إلى غيرهما إذا كانت هذيل حلت بهما في عصر متأخر.

ولا استبعد أن جماعات أخرى من بني هذيل وغيرهما قد وفدت إلى مصر وأقامت بها بعد عصر الفتوح. فقد كان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية، كما بعث معاوية إلى مصر ذات مرة سبعة وعشرين ألفاً من أهل الشام والحجاز (حسن المحاضرة للسيوطي ١ : ٩٧ ـ ٩٨).

وكان لهذه الهجرات أثرها في الشعر العربي في الحجاز ومصر. أما أثرها في الشعر العربي المصري فنحاول الكلام عنه بعد. وأما أثرها في الشعر الحجازي فواضح في تلك القصائد والمقطوعات التي نظمها الشعراء الباقون في الحجاز، يتشوقون إلى الراحلين، ويذكرون عهودهم الماضية معهم. قال البُرَيق الهذلي:

ألم تَسْلُ عن ليلي وقد نَفِد العُمْرُ
وقد اقفرتْ مسها الموازجُ فالحَضْرُ
وقد هاجني منها، بوَعْساء قَرْمَد
وأجزاعِ ذي اللّهباء، منزلةٌ قَفْر

يظلُّ بها الـداعي الهديـل كأنـه
على الساق نشوانٌ تميل به الخمر
فإنْ تك في رسم الـديار فـإنها
ديار بني زيدٍ، وهل عنهم صبر
فإن أمْس شيخاً بالرجيع وولدة
وتُصبح قومي دون دارهمُ مصـر
أسـائل عنهم كلمـا جـاء راكبٌ
مقيمـاً بأمـلاح كما رُبِط اليَعْـر
فما كنت أخشى أن أقيم خِلافَهم
بستــة أبيـات كمــا نبت العِتْـر
بمـا قد أراهم بين مَـرٍّ وسـايـةٍ
بكــل مسيــلٍ منهمُ أنسٌ عُبْــر
بشِقِّ العهاد الحُوِّ لم تُـرْعَ قبلنا
لنا الصارخُ الحُثْحوثُ النَّعَم الكُدْر
لنا الغَوْر والأعراض في كل صيْفة
فذلك عصر قد خلاها وذا عصر

فلا ليلى هناك ليسلو عنها الشاعر العجوز. بل هم أهله الذين خلفوه ـ ربما ـ لكبر سنه، وتركوا منازلهم بالمواضع التي ذكر خاوية خالية، لا يلم بها غير الطير الباكي. فالشاعر يقف على طريق القادمين من مصر، لا يبـرحه كأنما هو جَدْي كبير مقيد، يسائلهم عن الراحلين. فلا

يجد غير ذكرياته معهم في مر وساية وعند مسايل المياة ثم يصحو فيرى عصراً ناضراً يتباعد عن خياله ويبصر تحت عينيه عصراً واقعاً أليماً.

ونجد الصورة نفسها عند شاعر هذلي آخر، هـو أبو صخر، ولكن كثيراً من أجزائها مختلف، قال:

مـاذا تـرجّى بعـد آل مُحـرِّق
عَفا منهمُ وادي رُهاطَ إلى رُحْب

فسُمْيٌ فـأعناء الـرجيـع بَسـابسٌ
إلى عنق المضياع من ذلك السهب

السهب

سوى عزْف سمّارٍ بها كـل ليلة
كعزف قيون الفارسيّ لدى الشَّرْب

جلوا من تهـامى أرضنا وتبـدّلوا
بمكة باب اليونَ والريطَ بالعصب

أؤمل جهلاً أن تريع النوى بهم
وهن بهم شُدفٌ صوادر عن شغب

أشاعكُم الأجرُ المضاعف والغنى
وصاحبَكم رَبُّ السموات من ركب

فلله قـومي كـل يـوم كـريهـة
ألمّت بتَيْهـورٍ منـاكبـه صعب

ولله هم يوماً إذا ما تزينوا
لكسب الندى أو للمواصلة الجُدب

بهالِيلُ بسامونُ بُلْجٌ لدى القِرَى
ملاويث حلاّلون بالأفيحَ الرّحب

فإلا تقلدْني المنية حبلها
نزرْهم عَجالى بالجنابية الصُّهب

فالشاعر هنا شاب، فلا نجد عنده لوعة الفقد الذي لا أمل معه بل يقابل الصيحة التي بعثها البريق في ختام مقطوعته بوعد بالسفر إلى مصر للقيا الراحلين. ولا يعمد أبو صخر إلى الرمز بحبيب ما إلى المسافرين، بل يذكرهم صراحة ويذكر أنهم غادروا الحجاز واستقروا بمصر، واستبدلوا أزياءه بأزيائها، ويبين في جلاء أنهم خرجوا يطلبون الجزاء الأخروي والدنيوي، يرضون الدين والدنيا، فما أعظمهم من رجال في وقت الشدة والرخاء، في الحرب والسلم، عندما يحتاج إلى الأشداء أو الكرماء.

ولم تذكر المراجع البطون التي نزلت مصر من بني هذيل، ولكننا نستطيع أن نتبين أنه قد حل بها جماعات من بني خناعة[1] رهط البريق، الشاعر الذي ذكرنا آنفاً؛ ومن

(١) ذكر في الأغاني (٢٠ : ١٦٧) أن أبا العيال الهذلي، الذي كان بمصر، من بني خفاجة بن سعد بن هذيل، وذكر في الإصابة (٧: ١٤٣) أنه من بني ضباعة بن سعد بن هذيل، والكلمتان محرفتان من خناعة. ولم

زليقة، رهط عطاء ابن رافع قائد الأسطول المتوفي ٨٤ هـ.

ولم يذكر المؤرخون المحدثون للأدب المصري أحداً من الشعراء الهذليين، كما لم يحاول القدماء أن يبينوا مواطن الشعراء الهذليين الكثيرين الذين عرفوهم، واقتبسوا من شعرهم، أو جمعوه ولكنهم فعلوا ذلك بصدد الكلام عن شاعرين اثنين، هما أبو العيال، وبدر بن عامر. ولا أستطيع أن أقول على وجه اليقين إن هذليي مصر لم يخرجوا غير هذين الشاعرين. فربما أخرجوا غيرهما ولم يذكرهم أحد، أو أخرجوا بعض المذكورين دون أن نعرف. فالحقيقة أن القدماء اقتصروا في أكثر الشعراء على سرد أسمائهم مجردة.

وإذا أردنا أن نعرف بعض أخبار هذين الشاعرين الهذليين لم نجد كثيراً، غير أن ما روي لنا عن أبي العيال أكثر مما روي عن زميله. فقد ذكر أبو الفرج أنه: «أبو العيال بن أبي عنترة، وقال أبو عمرة الشيباني: ابن أبي عنثرة بالثاء. ولم أجد له نسباً يتجاوز هذا في شيء من الروايات». وذكر في الإصابة (٧: ١٤٣) أنه. «أبو العيال بن أبي عنمة الهذلي». وأرجح أنها محرفة عما ذكر في الأغاني.

يتنبه إلى هذا التعريف من ذكر أبا العيال من المحدثين (أنظر ديوان الهذليين ٢: ٢٤١، والشعر والشعراء ٦٥١، طبع مصر).

وهو أحد بني خناعة بن سعد بن هذيل. قال أبو الفرج: «وهذا أكثر ما وجدته من نسبه».

أجمل أبو الفرج حياة الشاعر كلها في عبارة واحدة، فقال: «شاعر فصيح مقدم، من شعراء هذيل، أدرك الجاهلية والإسلام ثم أسلم فيمن أسلم من هذيل. وعمِّر إلى خلافة معاوية». وزاد ابن عساكر على ذلك قوله (الإصابة ٧: ١٤٣).«غزا في خلافة عمر فدخل مصر... وغزا مع يزيد بن معاوية الروم». وقال السكري (ديوان الهذليين ٢: ٢٥٦): «وكان فيه بعض الرهَق وهو الفساد».

ونستنتج من الأقوال السابقة أن أبا العيال الهذلي كان في الجاهلية من الصعاليك، وهم الأفراد الذين عاشوا على السطو والنهب والإغارة على القبائل والقوافل، وأنه مات في عهد معاوية أو إن شئنا الدقة في أواخر عهده، بعد غزوة القسطنطينية التي وقعت سنة ٤٩ هـ، واشترك فيها الشاعر.

ويتبين من شعره أنه لم يقم بعد فتح مصر فيها وحدها، بل شارك في حروب المسلمين مع الروم، وحُصِر ببلاد الروم مدة من حياته، لا ندري أطالت أم قصرت.

ولعل القصيدة التي قالها في الحصار أول قصيدة قالها بعد نزوله مصر، وبقيت عندنا، فقد قالها في عهد عمرو بن العاص الذي توفي سنة ٤٣ هـ. وقد بعث أبو العيال إلى

معاوية وعمرو بالقصيدة، فقرأها معاوية على الناس. ولذلك جعلها الشاعر على صورة الرسائل، ثم وصف فيها الحرب والحصار، قال (ديوان الهذليين ٢ : ٢٥٢):

منَ أبي العيالِ أبي هذيل فاعرفوا
قـولي ولا تَتجمجَموا مـا أرسل
أبلغْ معــاويـة بن صخــر آيــة
يهوى إليك بها البريـد المعجَل
والمـرء عمْـرا فـأتـه بصحيفــةٍ
مني يلوح بهـا الكتاب المنْمَـل
أَنــا لقينـا بعــدكم بــديــارنــا
من جـانب الأمراج يـوماً يُسـأل
أمـراً تضيق بـه الصـدور ودونـه
مهَـج النفوس وليس منـه معدِل
في كـل مُعتـرك يـرى منـا فتى
يهـوى كعـزلاء المـزادة يـزغــل
أو سيــدٌ كهــلٌ تمــور دمــاؤه
أو جانحٌ في صدر رمح يسعـل

ويخيـل لي أن القصيدة لم تصـل إلينا كـاملة، كما أن الشـراح أهملوا بعض إشاراتهـا التاريخيـة، فغمض بعض المعاني، واضطرب تسلسل الفكرة. ولكن الدارس يستطيع أن يتبين في الجزء الحربي أن الشاعر عني في كل بيت منه

بتقديم صورة مستقلة لقطاع من القتال، فهذا فتى يسقط والدماء منهمرة من جراحه، وذلك كهل تسيل دماؤه، وهناك من اخترقه الرمح فمال به. ويملأ الصور نبال ذاهبة آتية لا تدري من أين مأتاها. ولا إلى أين تروح، والرماح المشتجرة المختلطة كأنها حبال الآبار.

وأوحت حروب المسلمين والروم إلى أبي العيال قصيدة أخرى. فقد قتل في غزوة القسطنطينية ابن عم له، كان يدعى عبد بن زهرة، وكان أخاه لأمه أيضاً. فرثاه أبو العيال بقصيدته التي مطلعها (ديوان الهذليين ٢ : ٢٤١):

فتى ما غادر الأجنا
د لا نِكسٌ ولا جَنَب
ولا زمِّيلةٌ رعديـ
ـدةٌ رَعِشٌ إذا ركبوا

وقد خلع الشاعر على ابن عمه ما تصوره مكارم الأخلاق ونفى عنه مساوئها، فرسم له الصورة التي كان يرسمها شعراء العرب لمرثيهم غير أننا نرى صورته يندس فيها عنصر جاهلي، حين يذكر أنه لا يمتنع عن الميسر يريد بذلك وصفه بالجود:

ولا بكهامة بَرم
إذا ما اشتدت الحقب

فلا ميسر في الإسلام. فالقصيدة تصور لنا الصراع بين المثل الجاهلية القديمة، والمثل الإسلامية الجديدة، في مخيلة الشاعر. ويعبر أبو العيال عن انفعالاته إزاء هذا الحدث ثم يفيض في تصوير شجاعة المرثي ومواقفه في الحروب، وما يستعين به من عدة. وقد أعجب المغنون بهذه القصيدة لقصر وزنها، فلحنَ مَعبد وابن عائشة ومالك بعض أبياتها (الأغاني ٢ : ٢٠٧)

وأورد السكري في شرحه لأشعار الهذليين (١٤٧) أربعة أبيات لأبي العيال الهذلي في الحكمة، لا نستطيع أن نتبين متى قالها: قبل دخوله مصر أو بعده.

ووصل إلينا من شعر أبي العيال أيضاً أربع نقائض، كانت سبباً في الإحتفاظ باسم الشاعر الهذلي المصري الآخر الذي أشرت إليه آنفاً: بدر بن عامر، ولولاها لما عرفنا له خبراً.

وكل ما نعرفه عن هذا الشاعر ما قاله أبو الفرج: «قال الأصمعي وأبو عمرو: وكان أبو العيال وبدر بن عامر ـ وهما جميعاً من بني خناعة بن سعد بن هذيل يسكنان مصر وكانا خرجا إليها في خلافة عمر بن الخطاب، وأبو العيال معه ابن أخ له». ونقلت الإصابة (١ :١٧٧) الخبر عن الأغاني، غير أنها نسبت إليه أنه ذكر أن الشاعر مخضرم،

أسلم في عهد عمر. ولم أجد ذلك في الأغاني التي بين أيدينا.

وقد تبادل أبو العيال وبدر بن عامر النقائض مدة، روى لنا فيها الرواة أربع نقائض لكل واحد منهما. وذكر أبو الفرج سبب هذا الصراع الشعري، فقال: «فبينما ابن أخي أبي العيال قائم عند قوم ينتضلون، إذ أصابه سهم فقتله. فكان فيه بعض الهيج. فخاصم في ذلك أبو العيال، واتهم بدر بن عامر. وخشي أن يكون ضلعه مع خصمائه. فاجتمعا في ذلك في مجلس فتباثّا».

وليست النقائض بالفن الغريب على الهذليين؛ بل كان فناً منتشراً بينهم انشاراً كبيراً. فاشترك فيه أبو المثلم مع صخر الغي وأبو ذؤيب مع خالد بن زهير، وخالد بن زهير مع معقل بن خويلد، وقيس بن عيزارة مع تأبط شراً.

ونجد في نقائص بدر بن عامر وأبي العيال معاني تداولها أصحاب النقائض بعد أن طوروها، مثل الإفتخار بالقدرة الشعرية والتهديد ونجد فيها أيضاً ما يقتضيه الموقف بين بني العم من مدح وعتاب، مما لا نرى مثاله في النقائض الأخرى. وعلى الرغم من تطور فن النقائض عند بني هذيل في الجاهلية، وبلوغه إلى درجة رفيعة، نرى نقائض الشاعرين اللذين يتكلم عنهما لا ترتفع إلى هذا المستوى فكل نقيضة تتألف من أبيات. ولم يحاول كل شاعر من

الإثنين أن ينقض جميع المعاني التي أتى بها سابقه، كما كان شأن شعراء النقائض المعروفين في العصر الأموي، وإنما كان يذهب إلى نقض المعنى الأساسي وحده، ولعل أقرب هذه النقائض إلى النضج النقيضتان الثانيتان اللتان بدأ أولاهما بدر ابن عامر بقوله (ديوان الهذليين ٢ : ٢٦٢):

أقسمت لا أنسى منيحة واحد
حتى تخيّطَ بالبياض قروني
أو أستمر لمسكن أثوي به
لقرار ملحود العِداءِ شَطون
ومنحتَني جداءَ حين منحتَني
شخصاً بمالئة الحَلاب لبون
وحَبَوتك النصح الذي لا يشترى
بالمال فانظر بعد ما تحبوني

فهو يبين لأبي العيال أنه أقسم لا ينسى جميل أحد حتى يغيبه الموت، وأنه أحسن العطاء له على حين أساءه أبو العيال.

فرد عليه الأخير قائلاً:

أقسمت لا تنسى شباب قصيدة
أبداً، فما هذا الذي ينسيني
فلسوف تنساها وتعلم أنها
تبعٌ لآبية العصاب زبون

ومنحتَني فـرضيتُ زِيَّ منيحتي
فـإذا بهـا وأبيـك طيفُ جنـون
جَهراءَ لا تألـو إذا هي أظهرت
بَصَـرا ومـا من عَيْلة تُـعنيـني
قَـرِّب حـذاءك قـاحـلاً أو لينـاً
فَتَمنَّ في التحضيـر والـتلسـين
وارجـع مَنيحتـك التي اتبعتهـا
هُـوعـاً وَحـدَّ مـذلَّق مسنـون

فأنكر أبو العيال على بدر ما قال، وذكر أنه ناس للجميل، وأنه أساء العطية، واتبعها بالأذى، وطلب إليه أن يسترجعها.

ولما كانت نقائضهما لم تبلغ النضج الفني الذي بلغته نقائض جرير والفرزدق والأخطل ومعاصريهم، وصمها أبو الفرج حين قال: «لهما في هذا المعنى نقائض طوال، يطول ذكرها، وليست لها طلاوة، إلا ما يستفاد في شعر أمثالهما من الفصاحة» ونسي أبو الفرج أن هذه القصائد لم تتعد طور العتاب بين الأقارب إلى الهجاء الذي لا بقيا فيه، ولا حياء ولا مراعاة لشيء. ولذلك خلت هذه القصائد من كل إقذاع وسب، بل خلت من كل لفظ جارح وكذا كان شأن معظم نقائض الهذليين في مصر والحجاز، في الإسلام والجاهلية، غير قليل منها.

* * *

ولدينا شاعر هذلي ثالث، لم يصل إلينا غير اسمه، وهو مُلَيح ابن الحكم بن صخر القِرْدي. ولا نعرف عنه شيئاً وراء ذلك ولم يذكر أحد موطن هذا الشاعر، ولكن شعره يتضمن قصيدة طويلة ذكر فيها عدة أماكن مصرية، قال (ما بقي من أشعار الهذليين ١٢٦):

ولم يتنـوّمْنـا لهـا ليـلةَ اللّوَى
خيال يوافي الركبَ والركبُ نازلُ
ودوني هَيـام المَعـاصم فـاللوى
ومن دون باب اليونَ بحر وساحل
ودونيَ من هضب المقطم مُنكب
ومن عـابدٍ جلْسُ القَـرا متطاول
ونحن مُنِيخو كلّ صادقة السُّرَى
أمـون بـدَفَّيْهـا جـروحٌ مَـواثـل
هنالك وافَتْني وحـولي صحابتي
هجوداً، وأطلاحُ السّفار العوامل

ويتضـح من هذا أن الشـاعر حـل بمصـر، ولكني لا أستطيع أن أقطع برأي فيها إذا كان أقام بها أو لم يقم. وقد بقي من شعر مليح مجموعة طيبة، ولكنها لا تشتمل على ما يمكن أن نعتمد عليه في تاريخها، أو في الموطن الذي قيلت فيه، ولذلك لا نستطيع أن نفرق بين المصري من شعره وغير المصري.

وبدأ مليح قصيدته المصرية بالغزل شأن شعراء العربية، وقصر قوله فيه على الفراق والرحلة التي أبعدته عن حبيبته، ولكن طيفها اتبعه حتى اهتدى إليه، فقضى معه ليلة هانئة ثم تقضَّى الليل فتبين أن كل ما تمتع به باطل. وازدحمت بنفسه الأحزان فأراد أن يسري عن نفسه، فلجأ إلى ما يلجأ إليه شعراء العرب: الناقة، ووصف أجزاء جسمها، وسرعة عدوها، ومثلها في ذلك بالحمار الوحش. وكل ذلك أمر مألوف من الشعراء.

وتمثل هذه القصيدة من شعر مليح بقية شعره تمثيلاً حسناً. فالواضح أنه نظم شعره كله أو ما بقي منه تعبيراً عن انفعالات خاصة به، وكأنما لم يشترك في الحياة العامة، ويضطرب بين أحداثها، فتلهمه ما يقول. ولا تتعدى هذه الإنفعالات ما وجدنا في قصيدته المصرية، من غزل، ووصف. أما الغزل فتتألف عناصره من ذكر الأطلال، ووصف الحبيبة، وتطور علاقته بها،وانتهاء الأمر بالفراق والرحيل. والحق أن الرحلات تشغل قسطاً وافراً من شعر مليح، حتى يكاد يتكلم عنها في كل قصيدة له. كذلك عني في كثير من غزله بوصف حبيبته. أما بقية عناصر الغزل فقليلة. ولكننا نجده في بعض غزله يعمد إلى حوار لطيف، يقرب ما بينه وبين امرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة، مع اختلاف المذهبين، فهذان لاهيان ماجنان، وهو عفيف أو رصين (ما بقي من أشعار الهذليين ١٢١):

فلمـا تـراجعنـا الكـلام وأتلعتْ

سـوالف رئمٍ طَـرفـه متشـوّف

شكرتُ العِدَى من دون ليلى وأنه

يزيد هواها النأي عندي فيُضعف

وخبّـرتُهـا أشيـاء تعـلم أنهـا

كذاك فقالت: كل ما قال نعرف

وألطفت من شكوى المحبِّ مقالة

لليلى وما قالت لنا بعدُ ألـطف

فقالت له: لو كان للحب منتهى

وللهجر أو لو كان ذو الضغن ينصف

بلغتُ على رغم الأنوف كرامـةً

إليك ولو مـات الغيور المكلف

ولكن عَداني اللوم من ذي قرابتي

ولَغْب العدى ممن يجوز ويَجْنف

فقلت لها: سيري فودك ضامن

عـليَّ ولُبِّـي عنـدكـم متسـلّف

وقد حلفت ليلى وقد كنت أنتهي

إلى منتهى إيمـانها حين تحلف

يزال لكم في النفس عندي ولو نأت

بك الدار مكنونٌ من الود مُزلِف

فعندي لليلى مثل ما حلفت به
عليهـا وكـلٌّ حـالف متـوكّف
فـأجسادنـا شتّى وأهـواءُنـا معـاً
على ذاك نحيا أو على ذاك نَتْلَف

وأكثر ما يلفت نظره في الوصف ـ غير ما ذكرناه آنفاً ـ الأسفار وما يتصل بها، فهو لا يخلي قصيدة من قصائده من وصف لرحلات حبيبته أو أسفاره هو، وما لاقى ورفاقه من عناء ومشقة، ثم وصف للناقة التي قطعت به تلك الأسفار.

ويمكن القول بأن شعر مليح قطعة من الشعر الجاهلي، لا يفصلها عنه سمو أو انحطاط، فموضوعاته وأفكاره وأخيلته وصوره وانفعالاته والتفاتاته وعباراته وموسيقاه، كل ذلك لا ينفصل عما نرى عند الشعراء الجاهليين والمخضرمين.

ولا يعني هذا أن الإسلام لم يخلف أثراً في شعره، فربما كان اليسر والوضوح والسهولة التي تتحلى بها قصيدته الفائية التي اقتبسنا منها ما اقتبسنا أثراً إسلامياً حضارياً. ولكن الأثر الإسلامي يتجلى في المعاني التي افتخر بها الشاعر، وتختلط فيها المثل الجاهلية بالمثل الإسلامية. فالمثل الأولى في قوله (ما بقي من أشعار الهذليين ١٠٥):

وإني ابنُ صخـر ثم آل مؤمـل
هنالك حوض المجد غير المرنّقِ

أبي نَصَب الرايات بين هـوازنٍ
وبين تميمٍ بعـد خوف محـدِّق
ونحن قتلنـا مُقبِـلاً غيـر مـدبـر
تأبط ما تَزْهَقْ بنا الحربُ نَزْهَقِ
وقـائـدَ بهْـز قـد قتلنـا وربمـا
قتلنـا الكمِيّ حاذراً غيـر مُطرِق

وتبدو المثل الإسلامية في قوله:

ونحن ضربنا يومَ يُلتمس الهدى
بـأسيـافنـا عنـد النبي المـوَفّقِ
ضربنا بهن الهامَ عن كل جائر
عن الـدين أو من تائـهٍ مُتَبطرق
بضـربٍ ترى أُم الـدماغ كـأنها
إذا انَدَرَتْ من جَوْبها رأسُ خِرْتقِ
بضـرب يزيـل الهامَ شـدةُ وقعه
بكـل حسـام ذي صبيٍ ورونق

* * *

ووفد على مصر ثلاثة شعراء آخرين، ولكنهم لم يقيموا بها. وربما أطال أولهم المقام، ولكن في أحد قبورها، فقد اتفق المؤرخون جميعاً على أن أبا ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد خرج في خلافة عثمان قاصداً الإسهام في غزو إفريقية، مع عبد الله بن الزبير، فمات في غزوته تلك.

وعلى الرغم من هذا الإتفاق، كثر الخلاف حول الموضع الذي مات فيه، فقيل: توفي بطريق مكة. وقيل: مات في طريق إفريقية. وقيل: هلك في طريق مصر. وأبعد بعضهم فقال: مات غازياً بأرض الروم.

وذكر أبو ذؤيب غزوته تلك في قصيدة له (ديوان الهدليين ١: ١٢٩)، لعلنا لا نعدو الصواب إذا خامرنا الظن أنه قالها في مصر. وقد عالج الشاعر فيها أموراً في إيجاز شديد، إذ استهلها بالنسيب الذي انتقل منه إلى وصف السحاب ثم عاد إلى النسيب وخلطه بمدح لعبد الله بن الزبير وإشارة إلى رحلته معه:

أمِن أُمِّ سفيان طيفٌ سَرَى
هُدُوّاً فأرقَّ قلباً قريحاً

عصاني الفؤاد فأسلمته
ولم أك مما عناه ضَريحاً

* * *

ووفد على مصر شاعران للتكسب بالقول، هما أمية بن أبي عائذ العمري وأبو صخر الهذلي. وقد وفد كلاهما في ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) ولا نعرف عن أمية غير ما ذكره أبو الفرج في الأغاني (٢٠: ١١٥) «أحد بني عمرة بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل. شاعر إسلامي، من شعراء الدولة الأموية. وهذا

أكثر ما وجدته من نسبه في سائر النسخ. وكان أمية أحد مداحي بني مروان. وله في عبد الملك وعبد العزيز ابني مروان قصائد مشهورة».

ولم يصل إلينا من هذه القصائد المشهورة سوى واحدة في مدح عبد العزيز بن مروان (شرح أشعار الهذليين ١٩٨). وقد ذكر ابن الأعرابي وأبو عبيدة جميعاً أنه وفد إلى عبد العزيز إلى مصر، قاصداً له، وقد امتدحه بهذه القصيدة. ولكننا حين نقرؤها نرى فيها أمراً عجيباً فقد بدأها الشاعر بيوم الفراق وأشجانه، التي لا يفرجها غير اعتلاء ناقته، قاصداً:

إلى سيد الناس عبد العزيـز
أعلمتُ للسيــر حَـرفـاً أمـونـاً

وينسى الشاعر نفسه، فيمنحها جميعاً لناقته والطريق التي قطعها، فيطنب في وصفهما وكأنه لا يعنيه أمر آخر. ثم يصحو آخر الأمر، عندما تبغته مناظر مصر، ويحس بأن الراحة قريبة فيقدم بين يديه ثمانية أبيات زلفى وتقرباً. وليته أخلص الأبيات الثمانية للمدح، بل لقد خلطها بالثناء على شعره:

فذالك ما الدَّأْب حتى استرحنَ
عنـد ابن مـروانَ ممـا لقينـا

إلى معـدن الخير عبـد العـزيـز
يَـبْلُغـنــه ظُلّعــا قــد حَـفيـنــا

ترى الأُدمَ والعيسَ تحت المُسوحِ
قد عدنَ من عَـرَقٍ الأينِ جُونـا

مـدحتُ الممـدّح عبـد العـزيـز
إن الـكــرام همُ يُـمــدحــونــا

وســار بمـدحــة عبـد العــزيـز
ركبــانُ مكــة والـمُنـجِـدونــا

وقــد ذهـبــوا كــلّ أوبٍ بهــا
وكــل أُنــاسٍ بهــا مُعجبــونــا

مُحبَّــرةٌ من صــريــح الكــلام
ليست كمـا لَصّق المحْـدثــونـا

وأنــت امــرؤ مــاجــد سـيــد
تُصَفِّي العتيقَ وتنفي الـهجـينــا

حقاً أن أمية ليس بدعاً في هذا الأمر، ولا ينفرد بهذه الحال ولكن أطال جداً في وصف الناقة والرحلة، ولم يحسن المدح، فظهر الخلل جلياً.

وطال مقام أمية بمصر عند عبد العزيز، وكان يأنس به، ويصله بصلات سنية. ولكن الشاعر اشتاق إلى أهله، ولم

يستطع مغالبة انفعالاته، فصاح بها شعراً عاطفياً جميلاً:

متى راكبٌ من أهل مِصرَ، وأهلُه
بمَكـةَ، من مصرَ العشيـةَ راجعُ
بلى، إنها قد تقطع الخرق ضُمّرٌ
تباري السري، والمعسفون الزعازع
متى ما يجوِّزها ابن مروان تعترف
بلاد سليم وهْي خوصـاء ظالـع
وباتت تروم الدار من كل جانب
لتخرج واشتدت عليها المصارع
فلمـا رأت أنْ لا خروج وإنمـا
لها من هواها ما تُجن الأضالع
تمطت بمجدول سِبَـطر فطالعت
ومـاذا من اللوح اليماني تـطالع

فقال له عبد العزيز: «اشتقت والله إلى أهلك يا أمية». فقال: «نعم والله أيها الأمير».. فوصله وأذن له بالخروج.

والشاعر يخلع في مقطوعته انفعالاته على ناقته، فهي منذ شعرت بالشوق تبغي الخروج من مصر لترحل إلى أهلها، ولكن شوقها عظم، وأبواب الخروج سدت أمامها، فأخذت تمد العنق، وترمي البصر، وتبحث عن النجم اليماني الآتي

ن قبل بلادها تستروح إليه وتتلهى به عن الأحبة. ولا زال تنتظر إذناً من عبد العزيز لتقطع الطريق طيراناً، دون أن تحس عناء، لتطلع على بلاد سليم (وهذيل)، فتشفي ما أضمرت من هوى.

وأورد الرواة لامية بن أبي عائذ أربع مقطوعات أخرى، ليس فيها ما يشير إلى زمن قولها أو مكانه، ولكن المرجح أنه قالها خارج مصر التي لم يدخلها إلا بغرض المدح المتكسب. وقد تغزل في هذه القصائد، وروى ذكرياته الغرامية، ووقف على الأطلال، وعاتب بعض الأقارب، وناقض سهم بن أسامة العمري. ولكن أهم من جميع ذلك وصفه الطويل لناقته وللحمار الوحشي الذي شبهها به، فوصف في مرعاه، وفي مطاردته، وفراره من الصيادين. وبالرغم من براعته في هذا الوصف، يجب أن نذكر أنه لا ينفرد به بين أبناء قبيلته أو أبناء أمته. فما أكثر ما نظم الهذليون في وصف الحيوان والصيد. وعلى الصورة التي سلكها أمية، فعل ذلك أسامة بن الحارثة، وساعدة بن جُؤيّة، وأبو ذؤيب، وغيرهما من بني هذيل وفعله لبيد بن ربيعة وغيره من غيرهم.

والحق أن أمية بن أبي عائذ، سار في ركب شعراء العروبة من الجاهليين الإسلاميين، فلم يتخلف عنهم فيما أخذوا به أنفسهم من معالجة شؤون حياتهم، من غزل ووصف لصحاريهم وطرقهم وأسفارهم وحيوانهم، وإن

تخلف عما لجأ إليه الحضريون لكسب عيشهم من مدح. ولعل أدق من شعر بذلك، وأحسن من عبر عنه، الشاعر نفسه، حين قال عن قصائده:

محُبـرة من صـريـح الكـلام
ليست كـما لصق المحـدَثـونـا

فهو عارف أنه بعيد عن الذوق الحضري الجديد، مُتّبع للذوق البدوي القديم، فهو إذن ـ إذا طرحنا ما عاب به المحدثين ـ من أبناء المدرسة القديمة.

* * *

ونحن أسعد حالاً، عند الكلام عن حياة أبي صخر الهذلي. إذ بقي لدينا من أخباره أكثر مما بقي من زملائه السابقين، وجميعها رواه أبو الفرج في الأغاني. فهو عبد الله بن سَلم السهمي، أحد بني مُرمِض، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية، وكان موالياً لبني مروان متعصباً لهم. فجر عليه ذلك البلاء أيام سيادة عبد الله بن الزبير على الحجاز، موطن الشاعر.

قال أبو الفرج (الأغاني ٢١: ١٤٤): «لما ظهر عبد الله ابن الزبير بالحجاز، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية، وتشاغل بنو أمية بالحرب بينهم في مرج راهط وغيره، دخل عليه أبو صخر الهذلي في هذيل، وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم، وكان عارفاً بهواه في بني أمية. فمنعه

عطاءه. فقال: «علام تمنعني حقاً لي، وأنا امرؤ مسلم ما أحدثت في الإسلام حدثاً ولا أخرجت من طاعة يداً».
قال: «عليك بني أمية فاطلب عندهم عطاءك» قال: «إذن أجدهم ، بطاً أكفُّهم، سمحة أنفسهم، بذلاء لأموالهم، وهابين لمجتديهم، كريمة أعرافهم، شريفة أصولهم، زاكية فروعهم، قريباً من رسول الله صلى الله عليه نسبهم وسببهم، ليسوا إذا نسبوا بأذناب ولا وسائط ولا أتباع، ولا هم في قريش كفقعة القاع، لهم السؤدد في الجاهلية والملك في الإسلام؛ لا كمن لا يعد في عِيرها ولا نفيرها؛ ولا حَكم آباؤه في نقيرها ولا قطميرها؛ ليسَ من أحلافها المطيبين؛ ولا من ساداتها المطعمين: ولا من جودائها الوهابين؛ ولا من هاشمها المنتخبين؛ ولا عبد شمسها المسوّدين. وكيف تقابل الرؤوس بالأذناب؟! وأين النصل من الجفن، والسِّنان من الزَّجّ؛ الذُّنابي من القدامى؟! وكيف يفضَّل الشحيح على الجواد؛ والسوقة على الملك؛ والجامع بخلا على المطعم فضلاً؟!»[1]. فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه؛ وعرق جبينه، واهتز من قرنه إلى قدمه؛ وامتقع لونه. ثم قال له: «... يا جلف! يا جاهل! أما والله لولا الحرمات الثلاث: حرمة الإسلام؛ وحرمة الحرم؛ وحرمة الشهر الحرام؛ لأخذت الذي فيه عيناك».

---

(١) أرجح أن هذه الأوصاف ليست كلها من قول أبي صخر، وإنما أضيف إليها.

ثم أمر به إلى سجن عارم. فحبس به مدة. ثم استوهبه هذيل ومن له من قريش خؤولة في هذيل. فأطلقه بعد سنة؛ وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبداً». وذكر أبو الفرج في موضع آخر أن أبا صخر بقي محبوساً إلى أن قتل عبد الله بن الزبير؛ فأطلق سراحه.

ومن الطبيعي أن يحسن عبد الملك بن مروان جزاءه؛ وقد قاسى من أجل دولته. فلما تم الأمر لعبد الملك وحج، لقيه أبو صخر. فلما رآه عبد الملك قرّبه وأدناه؛ وقال له: «إنه لم يخَفَ عليّ خبرك، ولا ضاع لك عندي هواك ولا موالاتك». فقال: «إذ شفي الله منه نفسي، ورأيته قتيل سيفك، وصريع أوليائك مصلوباً، مهتوك الستر، مفرق الجمع، فما أبالي ما فاتني من الدنيا». ثم استأذنه في الإنشاد فأذن له. فوقف بين يديه وأنشد قصيدته التي مطلعها:

عَفَت ذاتِ عرق عُصلها فرِئامها
فدهَناؤها وحش وأجلى سوامهـا

فأمر له عبد الملك بما فاته من العطاء ومثله صلة من ماله وكساه وحمله.

وعاش أبو صخر الهذلي إلى آخر العصر الأموي، فاشترك - بالقول فيما أظن - في الحروب التي شنها طالب الحق عبد الله ابن يحي الكندي الأباضي - من الخوارج - على الأمويين

في الحجاز، بين سنتي ١٢٨ و ١٣٠ هـ. ودافع عن الأمويين وقوادهم وذم الخوارج. ثم تسكت المصادر عن أبي صخر، فلا تذكر شيئاً عن وفاته ومتى كانت.

واتصل أبو صخر بأربعة من الأمويين ومدحهم، وهم عبد الملك بن مروان، وأخوه عبد العزيز، وابنه سعيد بن عبد الملك، وعبد العزيز بن خالد بن أسد. ولا تذكر المراجع صلات بينه وبين الخلفاء بعد عبد الملك بن مروان. وليس في شعره الباقي ما يدل على وجود مثل هذه الصلات. ومن الغريب أن ينقطع الشاعر عن مدح بني مروان، مع احتفاظه بإخلاصه لهم إلى أواخر عهدهم. وربما قال فيهم شعراً لم يبق عندنا.

وقد بقي من شعر أبي صخر الهذلي عدة قصائد، ولكن الأمر الذي يؤسف له أن شعره المصري كله مفقود. فلم نعثر على شيء منه في مدح عبد العزيز بن مروان. بل لم نعثر من مدحه لعبد الملك إلا عى واحدة، ولذلك نلقي على شعره نظرة عامة لنتبين خصائصه، التي نحن مطمئنون أنها خصائص شعره المصري أيضاً.

ويتنازع شعر أبي صخر الغزل، والمدح، والعتاب، والرثاء، والوصف. وهو في هذه الموضوعات محسن مجيد، لا يقل عن معاصريه من شعراء الحجاز والشام أو العراق. وينتسب في غزله إلى مدرسة الحب العفيف، فالمعاني والصور

والمشاعر التي يتكلم عنها هي ما يذكره جميل وكثير وقيس بن الملوح. ويغلب على شعره الغزلي التنغيم الوافر الحلو، والعبارة السهلة المنتقاة، شأن المنتمين إلى هذه المدرسة. وأدى ذلك إلى اختلاط بعض شعره بشعرهم، وخاصة قصيدته الرائية. وقد استعار في قصيدته:

بأهليَ مَن أمسى على نابة شَكلا
ومن لا أرى في العالمين له مثلا

تقليداً كان يراعيه الوصاف، عندما يريدون وصف نوقهم، إذ كانوا يشبهون الناقة بحيوان ما، ويفيضون في الحديث عن الحيوان الجديد، وربما رووا عنه القصص. وقد فعل ذلك أبو صخر في الغزل، عندما ذكر أن وجده بليلى أكثر من وجد العجوز الشمطاء التي فقدت وحيدها. وروى في إفاضة كيف فقدته:

فما وجْد شمطاءِ العوارض أقلتت
بنيها فلم يُبق الزمان لها أهلا
وقد لُبِست حتى تولى شبابها
إذا مات بعلٌ بُدّلت بعده بعلا
ولم يبق من أبنائها غير واحد
وما إن أقرّت قبلَ مولده الحملا
تكفُّ عليه الدرعَ ثم تضمّه
إلى كبد قد جَرّبت قبله الثكلا

فشبَّ لهـا مثلُ الـرُّدَينّي مـاجـدٌ
كـريمٌ تـراه في عشيـرتـه جـزلا

وختم القصيدة بقوله في البيت السابع والعشرين:

فأيسرُ ما أُبدي بليلى كـوجدهـا
سوى أنني أُبدي لها خُلُقاً جزلا

والحق أن أبا صخر الهـذلي من الشعراء المجيـدين في الموضوعات التي عالجـوها، وأن الصيـاغة الفنيـة نضجت عنده، وارتقت إلى مستوى الشعراء المعروفين. ولذلك لا أكاد أوغل في قراءة شعره حتى تمثـل أمامي صـورة كثير عزة.. فأوجه الشبه متعددة بين الشاعرين. ولعل الذي قصَّر بأبي صخر، وحرمه شهرة أمثاله إقامته الـطويلة في الحجاز، وعدم إلحاحه على الخروج منه والوفود على الخلفاء والإكتفاء بأيسر ذلك.

* * *

وتبقى لدينا قصيدة لشاعر لا ندري عنه شيئاً، بل لا نعرف أشامي هو أم مصري، وإن رجحت أنه من أحد البلدين، وغير بعيد أن يكون قد تنقل بينهما، شأن معظم النابهين في ذلك العصر. فقـد انتشر الـطاعون في مصـر والشام، وفتك بالناس فتكاً ذريعاً، وهلك كثـير من بني هذيل النازلين هنا وهناك. فرثاهم عبد الله ابن أبي ثعلب القردي الهذلي بالقصيدة الوحيدة الباقية من شعره:

أرقــتَ ومــالــك ألا تــنــامــا
وبَــت تــكــابــد لــيــلا تمــامــا
تكــابــد لــيــلا بــعيــد الــصبــا
ح حتى ترى الفجر يجلو الظلاما

وقـد رثى الشاعـر الهالكـين من رؤسـاء هـذيـل جملة وتفصيلاً، فخلع عليهم أجمل الصفات القبلية، من الجود والإبـاء والشجاعـة والإقـدام في الحـروب، ورثى لحـالـه بعدهم، وبكى مع أهلهم، ثم انتهى بفخر قبلي. والروح القبلية تتفجر في القصيدة في جميع أرجـائها. وكـأنما هي قصيدة جاهلية مالت إلى الوضوح في عبارتها.

* * *

ونخرج من هذه الجولة بأن جماعة من بني هذيل الذين اشتهروا بالفصاحة والشعر والشجاعة نزلت بمصر منذ الفتح الاسلامي،فأشاعت فيها الشعر، وملأت مجالسها بفنـونه. فقد حافظ الهذليون المصريون على مواهبهم الشعرية، وعلى تراثهم الشعري. فواصلوا ما كانوا قد بدأوه في موطنهم الأصلي من فنون شعرية، كالنقائض، والمـدح، والرثـاء، والغزل والحنين، وما إليها. فالشعر المصري في ذلك العهد قطعة من الشعر العربي، تمتاز بجميع مزاياه، وتتحلى بجميع خصائصه، وتتألف من جميع عنـاصره. حقـاً قد يضعف

عنصر، ويغلب آخر، ولكنها جميعاً ممثلة فيه. فإذا كان بعض الشعراء ذكر بعض الأماكن المصرية، فإنما ذكرها على النحو الذي كان يذكر عليه الأماكن العربية التي عرفها. ويؤدي بنا ذلك إلى أن نقول للدارسين الذين أنكروا على مصر المشاركة في الشعر العربي: إنكم لم تصلوا إلى الحقيقة، إذ لم تحسنوا البحث عنها.

وربما يكون من الغريب أن نتساءل: هل أثرت مصر في الشعراء الهذليين المقيمين فيها؟ هل خلَّفت مظاهر الطبيعة المصرية آثاراً اندست في الشعر الهذلي المصري؟ نعد هذا السؤال غريباً لأن أكثر هؤلاء الشعراء ولد ونشأ ونضج في خارج مصر، واكتملت موهبته الشعرية وتم نضجه الفني في بيئته الأصلية. ولكننا نضع السؤال أمامنا. فكل ذلك لا يمنع تسرب أشياء ضئيلة لا تتنافى مع المحافظة العربية.

ولا أحب أن أقول أن الموضوعات التي عالجها الشعراء من وحي البيئة الجديدة، فنحن لا نرى في الشعر الجاهلي ذكر للطاعون وموتاه، مثلاً. ولا أحب أن أقول أن مدح عبد العزيز بن مروان أمر جديد أضافه الشعراء المصريون من بني هذيل. فرثاء الموتى ومدح الكبراء ظاهرة قديمة، ولا صلة قوية لها بالبيئة. بل ربما عالج الشاعر المصري حدثاً وقع خارج مصر، ولا يتنافى ذلك مع مصريته كذلك لا أحب أن أؤكد الأمثلة التي أوردها، وأضخم من أهميتها،

ولكن أضعها أمام القارىء معتقداً أنها مما أدخلته البيئة على الشاعر.

فقد واجه الشاعر الهذلي في مصر طبيعة تخالف طبيعة بلاده من وجوه عدة. فتنبه إلى المظاهر الكبرى، التي أثرت في حياته الجديدة، ولعل أوضح المظاهر وأجلاها في نظر ذلك العربي هو النيل، النهر العظيم، الذي ارتقى به المصريون فسموه البحر والذي لم ير له العرب مثيلاً. وأثّر ذلك في مخيلة أمية بن أبي عائذ، فاستمد منه بعض صوره، حين وصف السحاب والمطر، فقال:

أناخ بأعجاز وجاشت بحاره
ومد له نيل السماءِ المنزل

فالمطر المنهمر من السماء نيل. والصورة من الغرابة على الخيال العربي الخالص، بحيث استبعدها بعض الرواة، وأوّلها، فذهب الرُّماني النحوي إلى أن الرواية الجيدة «نيل».

ولفت نظر العربي في ذلك النهر العظيم تلك المراكب المختلفة الأحجام، والصاعدة والهابطة فيه، تحمل خيرات مصر، وتعتمد في سيرها على الرياح. ولم يكن في بيئة هذيل القديمة ما يشبهها. فأغرم بتلك الصورة وأكثر من الإشارة إليها. فهذا هو مليح الهذلي، أراد أن يصف الإبل في عدوها السريع فقال:

تبارَى إذا ما لاذ بالضال والغضا
من الحَرّ أدمانُ الفلاة الخواذلُ
كما نشَصت في البحر أوتاد قادس
مريسية طابت له، فهو جافلُ

حقاً كان شعراء شرق شبه الجزيرة يشبهون الإبل بالسفن، ولكن الأمر لا يقتصر على التشبيه، فالشاعر عندما أراد ذكر الرياح لم يذكر ما عهده العربي، وإنما ذكر ريحاً مصرية خالصة هي المريسية.

ثم وقع نظر العربي على هذه الأرض الخصبة الممتدة على ضفتي النيل، فتهب المصريين البقاء. فأعجب بمنظر هذه الزروع، ومنظر القمح خاصة، وكانت مصر تشتهر به في ذلك العهد. فاتخذ منه أبو العيال صورة أخرى فريدة لم يعهدها الشعر العربي. قال وهو يصف النبال:

فترى النِّبال تعير في أقطارنا
شُمسا كأن نصالهن السُّنبلُ



آل العاص

اشتهر العربي بقوله الشعر، وعرف بين الكتاب والمؤلفين بأنه لا يكاد يوجه خاطره إلى أمر ما حتى ينظم فيه الأبيات الرائعة. وقد عني المؤلفون القدامى بهذا الشعر عناية كبيرة، فجمعوا الدواوين الخاصة بكبار الشعراء وصغارهم. ثم رأوا أمامهم مجموعات كثيرة من الشعر، يستحق بعضها أن يفرد بدواوين، ولا يستحق بعضها الآخر، لقلته. فجمعوا دواوين القبائل المختلفة، فديوان الهذليين يجمع شعر من ينتمي لهذيل، وديوان الأسديين يجمع شعر بني أسد، وديوان الفقعسيين يجمع شعرهم.

والأمر الذي يؤسف له أن هذه الدواوين التي زادت على الخمسين، فيما يروى عن أبي عمرو الشيباني، لا زالت مفقودة، ولم نعثر على غير ديوان هذيل. وقد تبين لنا عند دراسة ديوان هذيل أنه يضم بعض الشعر المصري، الذي قاله أفراد من هذيل في مصر بعد هجرتهم إليها. ولا يستطيع أحد أن ينكر علينا أن نذهب إلى أنه لو كنا عثرنا

على بقية دواوين القبائل فربما كنا عثرنا على شعر مصري، كان يغنينا عن الضرب في وادي الظنون والفروض.

ولكننا على أية حال لن نفعل ذلك، وإنما سنحاول ألا نخرج عن الأرض الصلبة إلى الرمال المنهارة. فإذا فاتنا البحث عن القبائل الشاعرة، فلنبحث عن الأسر والأفراد ولا نكاد نفعل ذلك حتى تأتينا الشواهد تترى على شاعرية العرب الذين نزلوا مصر، وأنهم كانوا كإخوانهم في الأمصار الأخرى فصاحة قول، وخصب خيال، وحباً للشعر.

ولعل نظر الدارس يتجه أول ما يتجه إلى الأسرة الأولى في المجتمع العربي الجديد، أسرة القائد الذي استطاع أن يغزو البلاد ويضمها إلى الخلافة الإسلامية، ثم يصير حاكمها: أسرة عمرة بن العاص. فإذا ما وقع نظر الدارس عليها وجدها أسرة شاعرة، شبيهة بالأسر العربي في شبه الجزيرة. وسنحاول في هذا البحث أن نعرض الحياة الأدبية لهذه الأسرة.

أما رب الأسرة عمرو بن العاص فأشهر من أن يحتاج إلى تعريف. ولكننا نستطيع أن نجمل أحداث حياته الحافلة في العبارات القلائل التالية. كان في الجاهلية يتاجر في الجلود والعطور، وكان يسافر من أجلها إلى خارج شبه الجزيرة، إلى الشام ومصر شمالاً، وإلى الحبشة جنوباً. وتأخر إسلامه إلى السنة الثامنة من الهجرة. فقدم إلى المدينة هو وخالد بن

الوليد وعثمان بن طلحة مسلمين. فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر إليهم، قال: «قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها» وقد قربه النبي صلى الله عليه وسلم وأدناه لمعرفته وشجاعته، وولاه غزوة ذات السلاسل. وكان رسوله إلى ابن الجلندي. ثم استعمله على عمان، فمات صلى الله عليه وسلم وهو أميرها. وشارك في فتوح الشام، وكان هو الذي فتح قنسرين، وصالح أهل حلب ومنبج وانطاكية. فولاه عمر بن الخطاب فلسطين. وفي فلسطين راود عمْراً أعظم أعماله. فقد ألح عليه خاطر غزو مصر فأخذ يلح على عمر إلى أن أذن له. واستطاع بجيش صغير أن يهزم قوات الرومان، وأن يستخلص مصر منهم، ويدخلها في هدى الإسلام فكافأه عمر بأن ولاه عليها إلى أن قتل. ثم وليها لعثمان مدة، ولكنه عزله بعبد الله بن سعد بن أبي سرح. وقد نقم عمرو على عثمان لهذا السبب، إلى أن قتل فانضم عمرو إلى معاوية بعد تردد قصير، وكان أعظم معاونيه في الحصول على الخلافة. وكانت مكافأته ولاية مصر طول حياته وفي نحو السبعين من عمره توفي عمرو بن العاص في عام ٤٣ هـ. وقد اختلف المؤرخون في السنة التي توفي فيها، وفي عمره إذ ذاك، ولكن أصح الأقوال ما ذكرت[١].

(١) قيل أنَّه توفي سنة ٤٢ أو ٤٨ أو ٥١ وقيل أنه كان في السبعين أو الثالثة والسبعين أو التسعين من عمره

ووصف أحد المصريين عمْراً فقال أنه كان قصير القامة، وافر الهامة، أدعج، أبلج، يرتدي الثياب الموشاة، ويلبس حلة وعمامة وجبة. وأكمل بتلر الصورة فذكر أنه كان قوي البنية، مرن الأعضاء، تعود جسمه احتمال المشقة، وكان عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين. له عينان سوداوان ثاقبتان سريعتا التأثر سواء أكان ذلك في حال الغضب أم في حال السرور، وفوقهما حاجبان غزيران، ودون ذلك فم واسع. وكان وجهه ينم عن القوة في غير شدة، تلوح عليه لائحه البشر والأنس، وكان يخضب لحيته بالسواد.

وقال عنه أحد أصحابه: ما رأيت رجلاً يعرف كلام الله معرفته ولا رجلاً أكرم نفساً، ولا أشبه سراً بعلانية منه. وقال آخر: صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين ظرفاً ولا أكرم جليساً. وقال عنه بتلر: كان ذكي العقل؛ تجيش نفسه فتدفعه، وله قوة من عزمه كالحديد إذا عزم. وكان شجاعاً لا ينكل، ولكنه كان يؤثر الأناة، وعرف بين العرب بأنه من أحدّهم ذهناً ومن أكملهم عقلاً.

وعرف عمرو بالفصاحة والبيان، حتى أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه، قال متعجباً؛ «خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد». وألح على هذه الصفة كل من ترجم لعمرو أو تعرض له، فقال بتلر: كان

يحب الغناء حباً جماً، ويقبل عليه، ويطرب للشعر، وكان خطيباً بليغاً، وله خيال خصب

وأهم من ذلك كله أن عمْراً كان شاعراً. قال ابن عبد الرعنة: كان من فرسان قريش في الجاهلية وشعرائهم. قال ابن الأثير: لعمرو شعر حسن. وقال ابن كثير: له أمثال حسنة وأشعار جيدة. وكان عمرو شاعراً كثير الشعر. قال ابن عبد البر: كان شاعراً حسن الشعر، حفظ عنه الكثير في مشاهد شتى. ونجد مثل هذا القول عند ابن تغري بردى.

وإذن عمرو بن العاص شاعر محسن مجيد، نظم كثيراً من الشعر في أمور ومعارك مختلفة. فأين شعر هذا الشاعر؟

ظاهرتان غريبتان تواجهان الباحث في هذه النقطة. أولاهما أن أكثر الشعر الذي وصل إلينا من عمرو قاله في معارك صفين، بحيث إذا رفعناه لم يبق أمامنا إلا أبيات قلائل. وحفظ لنا هذا الشعر الصِّفِّيني كله كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري، فإذا كان عمرو قال كل هذا الشعر في صفين التي وصل إلينا الكتاب الذي يؤرخ لها، فما أكثر الشعر الذي قاله عمرو في المشاهد الأخرى التي اشترك فيها، ولم تصل إلينا الكتب التي تؤرخ لها، فلم يصل إلينا شعره فيها. الظاهرة الثانية أن الشعر الذي وصل إلينا من عمرو كله ـ ما عدا قطعتين صغيرتين ـ قاله في أحداث

وقعت خارج مصر. فهو شعر قاله قبل دخوله إياها أو بعد خروجه منها. ولا يفسر تلك الظاهرة إلا أمران: إما أن عمْراً كان يجد ما يلهمه من الشعر في الأحداث بعيداً عن مصر فينظم فيها، ولا يجد ذلك في الأحداث المصرية فلا ينظم شيئاً. وذلك أمر محال، فقد اشترك عمرو في مصر في معارك كثيرة في أثناء فتحها، وفي أثناء استخلاصها من أيدي أتباع علي بن أبي طالب. بل لقد اشترك في معركة قال عنها هو نفسه: شهدت أربعة وعشرين زحفاً، فلم أر يوماً كيوم المسناة، ولم أر الأبطال إلا يومئذٍ. فتلك معارك إذن تلهم الشعر وتدفع إلى نظمه. وأما أن عمراً قال شعراً فيها وضاع فلم يصل إلينا ويؤكد لنا هذا أن المؤرخين الذي وصلت إلينا كتبهم كانت توجه من عنايتها إلى الأحداث الشرقية أضعاف ما وجهته إلى الأحداث المصرية. ويؤكد لنا هذا أنه إذا كنا لم نعثر على شعر مصري في هذه الفترة المبكرة فليس ذلك بالدليل على عدم قول العرب المصريين الشعر، وإنما هو دليل على عدم عناية المؤلفين المشارقة بما قيل في مصر من شعر.

ومهما يكن الأمر، فإن الذي يهمنا أن عمراً كان شاعراً مكثراً. وواجب علينا أن ندرس ما وصل إلينا من شعره. وأقدم هذا الشعر ما قاله في هجاء عمارة بن الوليد المخزومي أخي خالد ابن الوليد. فقد كان عمارة غزِلاً معجباً بالنساء لا يردعه عنهن رادع فخرج مع عمرو بن

العاص في البحر إلى الحبشة. فراود زوجة عمرو، بل دفعه يوماً عن السفينة ليوقعه في البحر ويتخلص منه، وكان يظنه يجهل السباحة. ولكن عمراً سبح ولحق بالسفينة فنجا. وحقد على عمارة، ودس له عند النجاشي، فبطش به. وقال عمرو:

تعلَّمْ عماراً أن من شر شيمة
لمثلك أن يدعي أن ابن عم له أبنَما

أأَنْ كنت ذا بُرْدَيْن أحْوى مَرجَّلا
فلستَ براعٍ ابن عمك مَحْرما

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه
ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيث أمّما

قضى وطراً منه يسيراً وأصبحت
إذا ذُكرت أفعاله تملأ الفما

وقال يوم أُحد، يفتخر بانتصار قريش على المسلمين، قبل إسلامه:

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا
مع الصبح من رَضوَى الحبيك المُنطَّقُ

تمنَّتْ بنو النجار جهلاً لقاءنا
لدى جنب سَلْعٍ والأمانيُّ تَصْدُق

فما راعَهم بالشر إلا فجاءة

كَراديسُ خيلٍ في الأزقة تمزُقُ

أرادوا لكيما يستبيحوا قِبابنا

ودونَ القبابِ اليومَ ضربٌ محرِّق

وكانت قباباً أُومغت قبلَ ما ترى

إذا رامَها قومٌ أُبيحوا وأُحنقوا

كأن رؤوس الخَزْرَجِيّين غدوةً

لدى جنبِ سَلْعٍ حنظلٌ متفلّق

وقال في اليوم نفسه أيضاً، وبعض أهل الشعر ينكرها لعمرو[1]:

لما رأيتُ الحرب يَنْزُو

شرّها بالرَّضْف نزوا

وتناولت شهباء تَلْحو

الناس بالضرّاء لحوا

أيقنت أن الموت حقٌّ

والحياةَ تكون لغوا

حَمَّلتُ أثوابي على

عتَدٍ يَبُذّ الخيل رَهْوا

سَلِسٍ إذا نكْبن في البَيْ

داء يعلو الطِّرْفَ عُلوا

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣: ١٥٤.

وإذا تــنــزّل مــاؤه
مــن عِــطْفــه يــزداد زَهْــوا
رَبِــذٍ كــيَــعْــفــور الــصَّــريـ
مــةِ راعــه يــزداد دحْــوا
شــنِــجٍ نَــســاهُ ضــابطٍ
لــلخــيــل إرخــاءً وعَــدْوا
فــفِــدىً لــهــم دَمــي غَــدا
ة الــروع إذ يــمشــون قَــطْوا
سَــيــراً إلــى كــبش الــكــتــيــ
بــة إذ جَــلَتْــه الشــمس جَــلْوا

ولم نعثر من شعره الجاهلي على غير هذه القطع في الهجاء والفخر، ويبدو منها عبارة عمرو كانت تقصر أحياناً عن الفكرة التي يريد التعبير عنها، وأنه كان يلجأ إلى الإغراب في لفظه، وأنه كان على معرفة بالصور الشعرية القديمة فكان يحتذيها، وأنه كان يعتمد على السخرية، وعلى القول العام أو المثل السائر الذي يعطي الحقائق العقلية لا الشعرية.

ولم يصل إلينا أي شعر إسلامي قاله عمرو في الغزوات والفتوح التي أسهم فيها، غير ثلاثة أبيات من الرجز ذكر ابن عبد الحكم (الفتوح ١٦٢) أنه قالها وهو محاصر قصر بابليون، وقد وضع عليه المنجنيق قال:

يـومٌ لهَمدانَ ويـومٌ للصـدف[1]

والـمنـجنيق فـي بليٍّ تـختـلف

وعمر يُرْقِل أرقالَ الشيخِ الخرِف

وذكر أبو الفرج (الأغاني ١٦ : ٢٦) أن عمر بن الخطاب استقضى شريحاً، ونصحه، فقال عمرو:

إن الـقـضـاة إن أرادوا عـدلا

وفصلوا بـين الخصـوم فصـلا

وزحـزحـوا بـالحكم منهم جهـلا

كانوا كمثـل الغيث صاب محـلا

وإذا كان الرجز الأول يعطينا صورة المنجنيق وهو يلقي الأحجار على الحصن، وصورة عمرو وهو يتنقل مسرعاً بين صفوف المقاتلين حاثاً على القتال والصبر، فإن الرجز الثاني لا يعطي شيئاً يجعلنا نصفه بالشعر.

ولدينا قطعتان أخريان لا نستطيع أن نؤرخ لهما. فالأولى منهما بيت واحد يوصي بالإحتفاظ بالسر، قال:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها

فسرّك عند الناس أفشى وأضيع

والثانية رجز يفتخر فيه الدهاء، الذي عرف عنه، قال:

---

(١) أورد المنقري هذا البيت في أبيات قالها عمرة في وقعة صفين ٤٦٣.

إذا تخـازرتُ وما بي من خَـزَرْ

ثم كسرت العين من غير عـور

ألفيتني ألـوي بعيـد المستمـر

أحمل ما حُمِّلت من خيـر وشر

كالحية النضناض في أصل الحجر

وترسم القطعة صورة من أجمل الصور التي رأيناها عنـد عمرو، ولعل ذلك ما دعا بعض الرواة إلى استكثارها على عمرو ونسبتها إلى أرطاة بن سهية المري، ولكن الصورة المرسومة في الأبيات غير بعيدة عن ذهن عمرو، فقد روي له ما يشبهها نثراً في وصف معاوية بن أبي سفيان.

وتدور بقية الأشعار التي عثرنا عليها لعمرو، وعددها قريب من ثلاثين قطعة، حول العلاقات بينه وبين معاوية بن أبي سفيان والحق أنها ليست ثمرة جميع مراحل هذه العلاقات، بل ثمرة المـراحل الأولى. فهي تصـور التردد الذي وقع فيه عمرو، عندما بلغته أنباء مقتل عثمان بن عفان، والإشتباكات بين علي ابن أبي طالب والـزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وعصيان معاوية علياً. وأحاط به هذا التردد من جميع النواحي، عندما أرسل إليه معاوية يغريه على الإنضمام إليه، فاستشار أبناءه وقال:

تـطاول ليلي للهمــوم الـطوارق

وخوف التي تجلو وجوه العـواتق

إن ابن هند سائلي أن أزوره
وتلك التي فيها بنات البوائق
فو الله ما أدري وإني لهكذا
أكون ومهما قادني فهو سائقي
أأخدعه فالخدع فيه دنية
أم أعطيه من نفسي نصيحة وامق
أم أجلس في بيتي وفي ذاك راحة
لشيخ يخاف الموت في كل شارق
وقد قال عبد الله قولاً تعلقت
به النفس إن لم تعتقلين عوائقي
وخالفه فيه أخوه محمد
وإن لصلب العود عنه الحقائق

والحق أن عمراً يبين في جلاء أن نفسه تشعبت إلى نفسين: واحدة حريصة على مغانم الدنيا، وشرف الولاية، وشهرة الإسم؛ وأخرى حريصة على رضا الله، والقناعة مع الخمول، قال:

نفس تعفّ وأخرى الحرص يغلبها
والمرء يأكل تبناً وهو غرثان
أما عليّ فدين ليس يَشْرَكُه
دنيا، وذاك له دنيا وسلطان

لكن نفسي تحب العيش في شرف
وليس يرضى بذل العيش إنسان

وانتهى التردد بأن غلب الطمع على عمرو، ومالت نفسه إلى الإقليم الذي فتحه، فأخذ يساوم عليه. وقال أبياته المشهورة التي أوردها له معظم من ترجم له:

معاويَ لا أعطيك ديني ولم أنل
بذلك دنيا فانظرنْ كيف تصنع
فإن تعطني مصراً فأربح بصفقة
أخذت بها شيخاً يضر وينفع

وتم الإتفاق بين الرجلين، وصار عمرو ساعد معاوية الأيمن، وأبلى بلاء عظيمًا في معاركه مع علي هو وأبناؤه. ويكاد المتتبع لمعارك صفين لا يجد يوماً لم يشترك فيه عمرو. وكذلك يكاد المتتبع لشعره لا يجد حدثاً هاماً ما لم ينظم فيه عمرو شعراً. فقد وصل إلينا نحو من عشرين قطعة له، تعالج جوانب من صفين. ولذلك نستطيع أن نقول أن عمرو بن العاص كان شاعر صفين. وأن شعره كان ديوان صفين، بالمعنى الذي كان يفهمه القدماء من كلمة ديوان. فعمرو هو الشاعر الذي دوّن أهم أحداث هذه الحرب الطويلة وسجلها في شعره منذ البداية إلى النهاية. فهو يسمع بمسير عليٍّ إلى صفين، فيقول:

لا تحسبنّي يـا عليَّ غـافـلا
لأوردّن الـكـوفـة الـقـنـابـلا
بجمعيَ العام وجمعي قابلا

وتلتقي طلائع الجيوش، فيقول ذاماً ومهدداً الأشتر، قائد طليعة علي:

ويحـك يـابـن الحـارثْ
أنـت الـكـذوب الحـانـث
أنـت الـعـزيـز الـنـاكـث
أعِـدَّ مـال الـوارث
وفي القبور ماكث

ويشتبك الرجال، وتشتد وطأة القتال، فتبدأ الجنود في التردد والحرص على البقاء، وتحتاج إلى من يحثها ويقوي من عزائمها، ويرسم لها أجمل الجزاء، فيقول:

أكـرِمْ بـجـمـع طـيـب يـمـانْ
جِـوّا تكـونـوا أوليـاء عثمـان
إنـي أتـاني خـبـر فـأشجـان
أن عـليـاً قـتـل ابـن عـفـان
خـليـفـة الله عـلى تـبـيـان
رُدُّوا علينـا شيخنـا كمـا كـان

يـا أيها الجنـد الصليب الإيمان
قـوموا قيـاماً واستعينـوا الرحمن

ويستمر الشاعر في إرسال القطعة وراء الأخرى: يفتخر فيها بمجده وشجاعته وقتاله وصبره في الحروب التي يشيب لها الوليد، وضربه بالسيف، وحركتـه، ومن قتلهم دون أن يرهب أحداً. ويهدد أعداءه بما عبأ لهم من جموع ستبطش بهم بل ستطحنهم، فليعدوا وصاياهم، وليبينوا وارثيهم. ويهجو هؤلاء الأعداء فيصمهم بـالكذب وحنث الـوعد. وحث رفاقه وجنوده على الإستعانة بالرحمن، ليثبت أقدامهم في سبيل القصاص من قتلة الخليفة الشهيد، والثأر ممن قتل أقرباءهم وأصدقاءهم. وأثنى على القبائل التي ناصرته قبيلة قبيلة. وصور القتال السجال الذي يتبادل الفريقان المقتتلان فيه النصر والهزيمة. وعاتب معاوية وبعض قوّاده لمخالفتهم بعض نصائحه، وكشف لهم عن العـاقبة الـوخيمة لهـذه المخالفة، أو لتعييرهم إياه لبعض مواقفه من القتال، فتهكم بهم وسخر منهم، وأزاح الستار عن مواقف لهم لا تسرهم، واعتذر عن نفسه.

ولم يكن عمرو يرمي في أغلب هذا الشعر إلى أهداف فنية أو غايات جمالية، وإنما كان ينفث مشاعر امتلأ بهـا صدره، فأجراها على لسانه، أو كان يعبر عن حاجة عقلية دفعه فكره إلى التعبير عنها شعراً. فأخرج كثيراً من هذه

الصور التي ارتسمت في مخيلته رجزاً، لأنه الفن الذي كان يلجأ إليه العربي العادي عندما يريد أن يعبر عن أمر له قيمة شعورية في حياته. فالرجز كان الفن الشعبي لدى العربي في ذلك الوقت. فنصف المقطوعات التي لعمرو في صفين من الرجز، وألقىْ بها في سرعة، ليسجل موقفاً معيناً من مواقف القتال.

ويظهر في هذه القطع الصراع العنيف بين الأحزاب الإسلامية المختلفة. نجد عمراً في قطعة يحث على نصرة معاوية، ثم نجده في أخرى يلومه وإذا به يسترسل إلى مدح علي مدحاً رائعاً، وإلى سلب معاوية كل حق في الخلافة. والأمر المرجح أن الأحزاب تلاعبت بهذه الأشعار فحذفت وأضافت ما وافق وجهة نظرها.

وكما انتهت معارك صفين بالتحكيم الذي قوى من شأن معاوية، انتهت أشعار عمرو بتسجيل ما حدث في التحكيم وخداع عمرو لأبي موسى، وإهدائه الخلافة إلى معاوية. قال في إحدى مقطوعتين أفردهما للتحكمي ونتيجته:

أتتك الخلافة مزفوفةً
هنيئاً مرئياً تقر العيونا
تُزَف إليك كزف العروس
بأهونَ من طعنك الدارعينا

ومـا الأشعـري بصَلد الـزنـاد

ولا خامل الذكر في الأشعر بنا

ولـكـن أتـيـحـت لـه حيـة

يـظل الشجـاع لهـا مستكينـا

وتعطي القطعة صورة جميلة، تورد على الخاطر في سرعة الصورة التي رسمها أبو العتاهية في أبياته المعروفة:

أتـتـه الـخـلافـة مـنـقـادة

إلـيـه تـجـرر أذيـالـهـا

وأمثال هذه الصورة في شعر عمرو بن العاص قليل. فهو شعر يغلب عليه الأداء السريع، والتعبير المباشر، ولا يحمل مشاعر فياضة، ولا يعطي صوراً مؤثرة، وإنما يمثل الطابع التقريري التسجيلي كل التمثيل. ولعل أصدق حكم عليه ما قاله الشاعر حسان بن ثابت، عندما أنشدوه شعره، فقال: ما هو شاعر ولكنه عاقل (الأصمعي: فحولة الشعراء ٣٦).

وبعد أن استقرت الأمور لمعاوية، راودته نفسه ان يخلع عمراً عن مصر خوفاً من غلبته عليها، وعلم عمرو بهذه الرغبة، فبعث إليه:

معاويَ إنْ تدركْك نفسٌ شحيحةٌ

فما ورَّثتْني مصرَ أمي ولا أبي

وما نلتُها عفواً ولكن شرطتُها
وقد دارت الحَرْبُ العَوان على قطب

ولولا دفاعي الأشعريَّ وصَحْبه
لألفيْتَها ترغو كراغية السَّقْب

فزجع معاوية عن نيته. (الأخبار الطوال ٢٢٢).

ولكن عمرة بن العاص إذا كان شاعراً لا يرضى عنه كثيرون، فقد كان خطيباً يرضى عنه كل من يسمعه، ويعجب به كل الإعجاب فهو في منزلة عظماء الخطباء الذين عرفتهم الغربية، ودانت لهم، ورفعتهم إلى المراتب العليا.

ولا فرق بين عبارة عمرو وعبارة المعاصرين له من كبار الخطباء، فهو يعتمد مثلهم على المزاوجة، والسجع، والجمل القصيرة والجرس الجزل، واللفظ القوي الواضح، والصور المشرقة المؤثرة والأفكار الجزئية المنفصل بعضها عن بعض، المنطوية تحت جو عام واحد، ويلعب بأفكار المستمعين ومشاعرهم، حتى ليستطيع أن يخدعهم، ويخلع على نفسه مسوحاً غير مسوحه.

قال في صفين: «أيها الناس، قدِّموا المستلئمة، وأخروا الحاسر، وأعيروا جماجمكم ساعة؛ فقد بلغ الحق مقطعه، وإنما هو ظالم ومظلوم».

وقام قبل الموقعة العظمى في صفين، فاعتمد على

قوس، وأخذ يحرض أصحابه قائلاً[1]: «الحمد لله العظيم في شأنه، القوي في سلطانه، العلي في مكانه، الواضح في برهانه، أحمده على حسن البلاء، وتظاهر النعماء، وفي كل لَزْبة من بلاء، أو شدة أو رخاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. ثم إنا نحتسب عند الله رب العالمين ما أصبح في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من اشتعال نيرانها، وظلام جنباتها، واضطراب حبلها، ووقوع بأسها بينها، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. أوَ لا تعلمون أن صلاتنا وصلاتهم، وصيامنا وصيامهم، وحجنا وحجهم، وقبلتنا وقبلتهم ودينا ودينهم واحد، ولكن الأهواء مشتتة. اللهم أصلح هذه الأمة بما أصلحت به أولها؛ واحفظها فيما بينها. مع أن القوم قد وطئوا بلادكم، وبغوا عليكم. فجدوا في قتال عدوكم، واستعينوا بالله ربكم. وحافظوا على حرماتكم».

وبقيت لدينا خطبة طويلة، قالها عمرة في مصر، وتبرز خصائصه جميعاً في وضوح قال: «يا معشر الناس، إياكم وخلالاً أربعاً، فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة، وإلى الذلة بعد العزة. إياكم وكثرة

(١) يخامرني الشك في أجزاء من صدر هذه الخطبة، لما يتجلى فيه من إلحاح على السجع وتكرار لفظ كالبلاء.

العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل بعد القال، في غير درك ولا نوال ثم إنه لا بد من فراغ يؤول إليه المرء في توديع جسمه، والتدبير لشأنه، وتخليته بين نفسه وشهواتها. ومن صار إلى ذلك، فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل. ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه، فيحور من الخير عاطلاً. وعن حلال الله وحرامه غافلاً.

يا معشر الناس إنه قد تدلت الجوزاء، وذكت الشعرى، وأقلعت السماء، وارتفع الوباء، وقل الندي، وطاب المرعى ووضعت الحوامل، ودرجت السخائل. وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر. فحي لكم على بركة الله تعالى إلى ريفكم. فنالوا من خيره ولبنه وصيده. وأربعوا خيولكم واسمنوها وصونوها واكرموها فإنها جُنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم...»

والحق أن الدارس لا يسعه غير الشك في كثير من الآثار النثرية التي تنسب إلى رجال هذه العصور المبكرة، ؛و في كثير من أجزائها، وعباراتها، خفية أن يكون الرواة المتأخرون تصرفوا فيها. ولكن شهرة عمرو بن العاص الخطيب بين معاصريه تكفينا لنرفعه إلى المنزلة العليا التي هو جدير بها.

* * *

وأكبر ابناء عمرو، وأشهرهم، وبه كان يكنى: عبد الله. وأبو عبد الرحمن[1] عبد الله بن عمرو من أشهر الرجال بين الملمين بالدراسات الدينية، ولكنني لن أتعرض لهذه الناحية إلا لماماً فهدفي هو عبد الله الأديب. ويتفق أكثر المؤرخين على أنه ولد وأبوه حدث صغير السن، فكان بينهما اثنتا عشرة سنة، غير ابن يونس المؤرخ المصري، فقد جزم بأن بينهما عشرين سنة، وأسلم وهاجر قبل أبيه ولما خرج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى غزوة بدر أراد الخروج معه فرده الرسول فيمن رده لصغر سنه. ثم اشترك عبد الله في فتوح الشام ومصر تحت قيادة أبيه فكانت معه رأيته يوم اليرموك، وأصيب يوم الكريون بالإسكندرية بجراح بالغة. وأقام في مصر مع أبيه بعد فتحها، وكان يقيمه نائباً عنه عليها عندما كان يغادرها وافداً على الخليفة عمر أو عثمان. فلما عزل عمرو غادر الإثنان مصر إلى فلسطين. ويبدو أن عبد الله كان يترك فلسطين بين الفينة والفينة للجهاد. واشترك في إحدى الخرجات في غزو طبرستان مع سعيد بن العاص سنة ٣٠ هـ. ولما قتل عثمان وعمت الفتنة، وتردد في خوضها عمرو، استشار ابنيه فقال لهما: قد كان ما بلغكما من قتل عثمان رضي الله عنه، وبيعة الناس لعلّي، وما يرصده معاوية من مخالفة عليّ. وقال: ماتريان أما عليّ فلا خير عنده، وهو رجل يُدِلُّ بسابقته، وهو غير مشركي في

(١) قيل أنه كني أيضاً محمد وأبا نصر.

شيء من أمره. فقال عبد الله: توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه وهو عنك راض، وتوفي عمر رضي الله عنه وهو عنك راض، أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه. وقال محمد: أنت ناب من أنياب العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر. قال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بالذي هو خير في آخرتي وأسلم في دنياي، وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي أنبه لي في دنياي وشر لي في آخرتي. فرأى عبد الله رأي الرجل الذي لا يفكر إلا من وحي الدين، ولا يستلهم إلا الإحساس الديني الورع.

وكان ما كان من أبيه، وكانت صفين. فأجمع المؤرخون على أن عبد الله حضرها ثم اختلفوا بعد ذلك اختلافاً شديداً. فذهب جماعة إلى أنه لم يشترك في القتال، ونسبوا إليه أنه أقسم أنه لم يرم فيها بسهم ولا طعن برمح ولا ضرب بسيف. وذهبت جماعة إلى أنه كانت بيده راية أبيه، وجماعة إلى أنه كان على ميمنة الجيش، وأخرى إلى أنه كان يتقلد بسيفين، أو أنه كان معه سيفان تقلد واحداً وضرب بالآخر، وجماعة أخيرة إلى أنه كان يحرض الناس على القتال. واعتذر له بعض الناس بأنه إنما فعل ذلك طاعة لأبيه الذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعته.

ورووا في ذلك الخبر التالي عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه قال: كنت في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في حلقة فيها أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمرو. فمر بنا الحسن بن علي فسلم فرد القوم فسكت عبد الله حتى فرغوا فرفع صوته وقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل على القوم فقال: ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قالوا: بلى. قال: هو هذا الماشي ما كلمني كلمة منذ ليالي صفين، ولأن يرضى عني أحب إليَّ من أن يكون لي حمر النعم. فقال أبو سعيد: ألا تعتذر إليه؟ قال: بلى. فتواعدا أن يغدوا إليه، فغدوت معهما. فاستأذن أبو سعيد فأذن له، فدخل ثم استأذن لعبد الله، فلم يزل به حتى أذن له. فلما دخل أخبره أبو سعيد بالذي كان. فقال الحسين: أعلمت يا عبد الله أني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قال: إي ورب الكعبة. قال: فما حملك على أن قاتلتني وأبي يوم صفين. فوالله لأبي كان خيراً مني. قال: أجل، ولكن عمراً شكاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا عبد الله، صلِّ ونم وصم وافطر، واطع أباك. فلما كان يوم صفين أقسم عَليَّ فخرجت... وواضح أن أمر الرسول عبد الله بطاعته أبيه في هذا الموقف خاص بالصلاة والصوم لأن عبد الله كان يبالغ فيهما مبالغة يخشى منها على صحته وحياته. وواضح أن هذه الأقوال المتعارضة بشأن سلوك عبد الله في صفين من وحي الأحزاب المختلفة

التي اشتركت في المعركة وتجعل هذه الأقوال الوصول إلى الحق عسيراً على الباحث ولكن حياة الرجل ومسلكه وميوله ومذاهبه تجعلنا ننكر على من يغالي في دور عبد الله في صفين، ونقبل له أيسر ألوان الإشتراك.

ولعل مما يؤيد ذلك أن أهل الشام عندما أرادوا أن ينهوا القتال بينهم وبين العراقيين، ويدعوا إلى تحكيم القرآن بينهم، لجأ معاوية إلى عبد الله بن عمرو وأمره أن يدعو إلى أهل العراق إلى ذلك. فلعله لاحظ موقفه المعتدل هذا، فيجعل العراقيين أقرب إلى القبول منه. وقد وقف عبد الله بين الصفين، وقال: «يا أهل العراق، أنا عبد الله بن عمرو بن العاص. إنها قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا. فإن تكن للدين فقد والله اعذرْنا وأعذرتم. وإن تكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم. فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذلك من الله. فاغتنموا هذه الفرجة لعله أن يعيش فيها المحترف وينسى فيها القتيل». وواضح أن عبد الله يضع نفسه مع أهل الشام مما يؤيد دوره في صفين، وإن كان ذلك لا يعني أنه كان دوراً هاماً.

وعندما وصل المتقاتلون إلى الإتفاق على التحكيم كان أحد الشهود عليه. ولما صارت أزمة الخلافة في يد معاوية وحده؛ كافأ عمراً وابنه. فأعطى الأول ولاية مصر. والثاني

ولاية الكوفة. ولكن المغيرة بن شعبة حسد ثانيهما؛ فكاده عند معاوية فقال له: استعملت عبد الله على الكوفة وأباه على مصر؛ فتكون أميراً بين نابي الأسد، فعزله معاوية.

وعاد إلى مصر، وبقي فيها مع أبيه، وعاودا سيرتهما أيام عمر ابن الخطاب وعثمان. فكلما غادر عمرو مصر استخلف عليها ابنه ولما مات عمرو، ترك ابنه والياً عليها. ولكن معاوية لم يلبث أن ولى عليها أخاه عتبة بن أبي سفيان. ولما مات معاوية عارض عبد الله في البيعة ليزيد خليفة، ولكن معارضته لم تطل، إذ تمكن والي مصر من إخمادها في مهدها.

وعاش عبد الله بقية حياته لنفسه، متنقلاً بين مصر والحجاز والسام، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى. واختلف المؤرخون في سنة وفاته ومكانها، فقالوا مات سنة ٦٣ أو ٥٥ أو ٦٧ أو ٦٨ أو ٧٣ أو ٧٥ في مكة أو الطائف أو الشام أو مصر. وأصح هذه الأقوال أنه توفي سنة ٦٥ بالفسطاط من مصر.

وكان عبد الله - في صفاته الجسدية - طوالاً، عظيم الساقين، أحمر، أبيض الرأس واللحية، وعمي في آخر عمره.

أما صفاته العلمية والدينية، فقد كان فاضلاً عالماً قرأ القرآن والإنجيل والتوراة. وكان من الحريصين على جمع

وحفظ أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام. فاستأذنه في أن يكتب عنه فأذن له فقال: يا رسول الله، أكتب ما أسمع في الرضا والغضب؟ قال: نعم، فإني لا أقول فيهما حقاً. وكان يسمي صحيفته التي دونها عن الرسول عليه الصلاة والسلام الصادقة. وقال أبو هريرة عن عبد الله: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص. فإنه كان يكتب ولا أكتب. وقد اتخذه المصريون مفتياً لهم، فكانوا يتبعون في الأكثر فتاواه.

وكان من الورع والزهد بحيث يوالي الصوم ويقضي الليل مصلياً. فخاف عليه أبوه، فشكاه إلى الرسول، فقال له: إن لعينك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، قم ونم، وصم وافطر... واتفق معه في جهد على نوع من الصوم والصلاة، شاقين، أجهداه عندما كبر، فروي أنه كان يقول: يا ليتني كنت قبلت رخصة، رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما الجانب الذي يهمنا من حياة عبد الله، الجانب الأدبي، فقد تبين لنا سابقاً أنه كان يعرف الكتابة ويحسن استخدامها. وقد أفاد منه الرسول عليه الصلاة والسلام فاتخذه كاتباً له، كما كان أبوه. كذلك تبين لنا أنه كان خطيباً، يستطيع أبوه أن يعتمد عليه في المواقف الدقيقة،

كما رأينا عند الدعوة إلى التحكيم. ولكن عبد الله لم يبلغ في الخطابة مبلغ أبيه، فلم ترو لنا عنه غير خطبة واحدة، هي التي ذكرتها قبل. ويتضح منها أنه فعلاً لا يتمتع بالخصائص التي تمتع بها أبوه، ولكنها لا تخلو من نواح تمكنه من إقناع خصومه، واستمالة مشاعرهم واكتساب إعجابهم.

وقال الحسن: ربما ارتجز عبد الله بن عمرو بن العاص بسيفه في الحرب. فعبد الله شأن أبيه، بل شأن كل عربي، إذا ما اشترك في قتال، اشترك فيه بسيفه ولسانه. فإذا بحثنا عن هذه الأرجاز أو الأشعار التي صدرت عن عبد الله في حروبه لم نجد غير واحدة. والحق أننا لم نعثر لعبد الله إلا على مقطوعتين مشكوك فيهما من الشعر.

فالأولى تعزي له ولعبد الله بن عروة بن الزبير، وقيل أنه قالها يرثي بها إبناً له لدغته حية فمات في السابعة من عمره قال:

فلولا الموت لم يهلك كريم
ولم يصبح أخو عز ذليلا
ولكن المنية لا تبالي
أغراً كان أم رجلاً جليلا
لقد أهلكت حية بطن واد
كريماً ما أريد به بديلا

مقيماً ما أقام جبال قُدْس

فليس بزائل حتى تزولا

وهي أقرب إلى الحكمة الدينية العقلية لا الحكمة الشعورية، وإلى تسجيل الواقعة منها إلى التعبير عن مشاعر خاصة عاناها الرجل بإزاء الحدث الذي ألم به.

أما القطعة الثانية، فتعزي له ولأخيه محمد وقيلت في صفين:

ولو شهدت جمل مقامي ومشهدي

بصفين يوماً شاب منها الذوائب

غداة أتى أهل العراق كأنهم

من البحر لُجٌّ موجه متراكب

وجئناهمُ نمشي كأن صفوفنا

سحائب جون رقّقتها الجنائب

فطارت علينا بالرماح كماتهم

وطرنا إليهم في الأكفِّ قواضب

فدارت رحانا واستدارت رحاهُم

سَراةَ النهار ما تُولِّي المناكب

إذا قلت يوماً قد وَنَوْا برزتْ لنا

كتائب حمر وارجحنّت كتائب

فقالوا لنا: إنا نرى أن تبايعوا

عليا، فقلنا: بل نرى أن تضاربوا

فـأُبْنا وقـد نالـوا سَـراةَ رجـالنـا
وليس لما لاقَوْا سوى الله حاسب
فلم أر يـوماً كـان أكثـر بـاكيـاً
ولا عـارضاً منهم كَميّـا يُكـالب
كأن تَـلالي البيض فينـا وفيـهمُ
تلألؤ بـرق في تهـامـةَ ثـاقب
فـلاهم يولـون الظهـور فيدبـروا
ونحن كمـا هم نلتقي ونضارب

والقصيدة من المنصفات، فقد كشفت عن الخسائر التي لحقت بالفريقين المقتتلين، ولم تغلب واحداً على الآخر، على الرغم من النغمة المفتخرة التي افتتحت بها. ولذلك قالت السيدة عائشة عندما أنشدت الأبيات: ما سمعت بشاعر أصدق شعراً منه. وقد يرى القارىء فيها صورة تقريرية تسجيلية للوقعة، ولكنها تختلف عن كل ما رأينا من شعر، فهي أجمل وأروع. فليس في شعر عمرو الذي رأيناه ما يداني تلك المشاهد التي رسمها الشاعر للجبهات المختلفة والجنود المتعادية، والإلتحامات، والخسائر، والحركة الدائبة، مع التشبيهات التي تقرب الصور وتشيع فيها الحركة والحياة والجمال. وطبيعي أن الشك الذي يخيم على دور عبد الله بن عمرو في صفين يخيم عليها أيضاً تبعاً لذلك، ولكنها سواء صح أنها لعبد الله ولأخيه، فهي لأحد أفراد الأسرة

التي أتكلم عنها، وهي لشاعر يعترف كل من يقرأ قصيدته بشاعريته.

* * *

ولم يحظ محمد بن عمرو بما حظي به أخوه من شهرة، ولم يتمتع - فيما يبدو - بميزة خاصة تلفت إليه الأنظار. فلم يتكلم عنه غير قليلين. فجهلنا أكثر أحداث حياته: جهلنا مولده ووفاته وكثيراً مما كان بينهما. فلا نعرف إلا أنه صحب النبي صلى الله عليه وسلم، وتوفي عليه الصلاة والسلام ولا زال حدثاً، ثم اشترك مع أبيه وأخيه في حروب الشام ومصر. فذكر الطبري أن أباه أمد به علقمة ومسروقاً، وجيش المسلمين محاصر إيلياء. وذكر أيضاً أنه كان من شهود الصلح بين أبيه وأهل النوبة. ويختفي محمد عن أنظار التاريخ إلى الفتنة، فيشير على أبيه بالرأي الذي يدل على أنه رجل دنيا وشهرة لا رجل دين وزهد كأخيه. ويجمع المؤرخون على أن محمداً شهد صفين، وقاتل فيها، وأبلى بلاء عظيماً. وكان أحد شهود وثيقة التحكيم. ومات دون أن يعقب أحداً.

ولم أجد أحداً ممن ترجم لمحمد ذكر أنه شاعر كما قيل عن أخيه وكذلك لم أعثر على أية قصيدة أو خطبة من إنشائه وإنما اختلف المؤرخون في القصيدة البائية السابقة ونسبوها إلى الأخوين. وتميل بي شخصية محمد الدنيوية إلى

أن أعزو إليه القصيدة، على حين تبتعد شخصية عبد الله الدينيه. ولكن القصيدة نفسها ليس فيها ما يميل بها إلى أحدهما، فالمرء قد ينتظر من محمد الإنهماك في الحرب، والفخر بها، والثناء على أعمال الأمويين. ولكن الإنصاف الذي يشيع فيها قد يقترب بها من عبد الله، فيصدمنا المطلع المفتخر المتغزل الذي يقترب بها إلى محمدٍ. ولذلك فإني أخرج من القصيدة.دون أن أستطيع ترجيح نسبتها إلى أحد الأخوين.

* * *

وآخر من نتكلم عنه زوجة عمرو بن العاص: عاتكة بنت زيد ابن عمرو بن نفيل. وكان أبوها ممن ترك عبادة الأصنام في الجاهلية وأخذ يبحث عن الله الحق، إلى أن قتل في الشام قبل البعثة. وأثنى عليه النبي عليه الصلاة والسلام. وقال: إنه يُبعث أمةً وحده. ويبدو أنه كان يقول الشعر أحياناً، فيعزي إليه البيت:

أسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له
المزن تحمل عذباً زلالا

وكان أخوها سعيد من المسلمين والمهاجرين الأولين، وهو أحد العشرة الذي بشرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنة، ومات في أيام معاوية. وكان حفيدة محمد بن عبد الله يقول الشعر، وهو القائل ليزيد بن معاوية يوم الحرة:

لستَ فينــا وليس خـالــد منــا
يــا مضِيـع الصــلاةِ للشهـواتِ

وأسلمت عاتكة وهاجرت إلى المدينة، وكانت ـ في قول ابن عبد البر ـ حسناء جميلة ذات خلق بارع، أو امرأة لها جمال كمال وتمام في عقلها ومنظرها وجزالة رأيها، وفي قول أبي الفرج بادنة ذات عجيزة ضخمة. وصورها محبها عبد الله بن أبي بكر، فقال:

ليهَنِك أني لا أرى فيك سخطة
وأنك قد تمت عليك المحاسنُ
فــإنــك ممن زين الله وجهــه
وليس لــوجـه زانــه الله شـائن

وجمع صفاتها جميعاً في بيت واحد، فقال:

لهـا خلق جـزل ورأي ومنــطق
وخلق مصون في حياء ومصدق

ولسنا نعرف من عاتكة إلا ما تعلق بأزواجها، شأنها في ذلك شأن نساء عصرها. وأول من تزوج بها عبد الله بن أبي بكر الصديق فشغفتـه حباً، وشغلتـه عن أمور دنيـاه ودينه. فكان ربما ترك الصلاة جماعة لجلوسه إليها. فضاق بذلك أبوه وأمره بطلاقها، فأبى، فألح عليه إلى أن طلقها. وسمعه أبوه يقول:

أعاتك لا أنساك ما هبّت الصبا
وما ناح قُمْرِيّ الحمام المطوق
أعاتك لا أنساك ما حج راكب
وما لاح نجم في السماء محلق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة
إليك بما تخفي النفوس معلق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها
ولا مثلها في غير جُرْمٍ تُطلّق
ولولا اتقاء الله في حق والد
وطاعته ما كان منا التفرق

فلان له قلب والده، وطلب أن يراجعها. فراجعها فوراً وأشهد أباه، وأعتق غلاماً له ليكون شاهده الثاني وأسرع إليها، وهو يقول:

أعاتك قد طُلقت في غير ريبة
وروجعت للأمر الذي هو كائن
كذلك أمر الله غاد ورائح
على الناس فيه ألفة وتباين
وما زال قلبي للتفرق طائراً
وقلبي لما قد قرب الله ساكن

وبقي إلى أن أصيب بسهم في حصار الطائف سنة ٨ هـ. فعاد إلى المدينة متألماً، وهناك انتقض به جرحه وأحس

بالموت يدنو منه. وغلبه حبه لعاتكة فوهبها حديقة له على ألا تتزوج بعده. فعاهدته على ذلك. ومات فرثته:

فجعت بخيـر الناس بعـد نبيهم
وبعد أبي بكر ومـا كان قَصَّـرا
فـآليت لا تنفـك عيني سخينـةً
عليـك ولا ينفـك جلديَ أغبـرا
مدى الدهر ما غنَّت حمامةُ أيكةٍ
وما طرد الليـل الصباح المنـورا
فلله عينـاً مـن رأى مثـله فتـى
أكرَّ وأحمى في الجهـاد وأصبـرا
إذا شرعت فبه الأسنـة خاضهـا
إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرا

وتزاحم الخاطبون عليها فرفضتهم جميعاً. ولكنها أخيراً تزوجت، قال بعض المؤرخين تزوجت زيد بن الخطاب، وبقي معها إلى أن استشهد في الردة في اليمامة سنة ١١ هـ. ولكن الأكثرين لا يذكرون زيداً، ويرون أن تزوجت عمر بن الخطاب مباشرة في سنة ١٢ هـ. ولعل ذلك هو الصواب، فم روى لها شعر في رثاء زيد. ولما خطبها عمر رفضت، وذكـرت له أمـرها مـع عبد الله ابن أبي بكـر والحديقة، فقال لها: استفتي فاستفتت علي بن أبي طالب فقال لها: ردي الحديقه على أهله وتزوجي ففعلت. وبقيت

معه إلى أن قتل سنة ٢٣ هـ. فرثته بثلاث مقطوعات قالت في إحداها:

منــع الــرقــاد فعــاد عيني عــــود
ممـــا تضمن قــلبي الــمعــمـــود
يــا ليلة حسبت على نجـومهـــا
فسهـــرتهـا والشـــامتـون هجـــود
قــد كــان يســرني حــذارك مــدة
فـــاليـــوم حق لعينيَ التســهيــد
أبكي اميـــر المـؤمنـين ودونـــه
للزائـــرين صفـــائـــح وصعيـــد

ولما انقضت عدتها من عمر، خطبها طلحة بن عبيد الله، فمشى في أمرها هبّار بن الأسود، فـأفسد عليـه. فتزوجها الزبير بن العوام، وكان يغار عليها كثيراً وذكر إبن قتيبة انها كانت قد أسنت ولكنه أخطأ في ذلك لأنه فهم كلمة عجّزت بمعنى ضخمت عجيزتها خطأ، فيما أظن. ولما قتل عمرو بن جرموز الزبير سنة ٣٦ رثته قائلة:

غـدَر ابنُ جرمـوز بفارس بُهمـةٍ
يـوم اللقـاء وكـــان غيـرَ معـــرِّدِ
يـا عمرو لـو نبهته لـوجـدتـــه
لا طائشاً رعش الجنان ولا اليد

شلت يمينُك إن قتلت لمسلما
حلت عليك عقوبة المتعمِّد
إن الزبير لذو بلاء صادق
سمح سجيته كريم المشهد
كم غمرةٍ قد خاضها لم ينهه
عنها طرادُك يا بن فقع القردد
فاذهب فما ظفرت يداك بمثله
فيمن مضى ممن يروح ويغتدي

ثم خطبها علي بن أبي طالب فرفضت. وقالت: إني أشفق عليك من القتل لم أتزوج رجلاً إلا قتل. وذكر معظم المؤرخون أنها تزوجت بعد ذلك الحسين بن علي، غير المدائني، فقد ذكر أنها تزوجت محمد بن أبي بكر الصديق، وخرجت معه إلى مصر، حين وليها سنة ٣٧ هـ. ولعل ذلك هو الصواب. فما كان الحسين ليخطبها بعد أن رفضت أباه مباشرة. وبقيت مع محمد إلى أن قتل ومثل به سنة ٣٨. فرثته قائلة:

إنْ تقتلوا أو تَمْثُلُوا بمحمد
فما كان من شأن النساء ولا الخمر

ثم ذكر المدائني أنها تزوجت من عمرو بن العاص، الذي مات سنة ٤٣ هـ، ولم يذكر ماذا تم من شأنها بعد ذلك لكن أخباره إن كانت صحيحة، فيكون زواجها من

الحسين بعد زواجها من عمرو بن العاص. ولما قتل الحسين سنة ٦٠ هـ، كانت أول من رفع خده من التراب، وقالت ترثيه:

وحسيناً فلا نسيتُ حسيناً
أقصدته أسنة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعاً
جادت المزن في ذرى كربلاء

ويقال أن مروان بن الحكم خطبها بعد الحسين، فامتنعتْ عليه وقالت: ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]. وتأيمت عاتكة فلم تتزوج أحداً. وكان عبد الله ابن عمر يقول: من أراد الشهادة فليتزوج بعاتكة.

* * *

هذه هي الأسرة المصرية العربية الأولى، تبين في جلاء أن الأسر العربية التي نزلت مصر، واصلت عاداتها وتقاليدها العربية في شبه الجزيرة، ولم تنقطع بينها الصلات، ولم يبتعد عن ماضيها بكل خصائصه. والشعر أحد هذه الخصائص، ولا يمكن أن نقول أن العرب الحاليين بمصر لم يصدروا منه ما كانوا يصدرونه من قبل، أو يصدره رفاقهم

(١) روى ذلك عن الرباب بنت امرىء القيس، زوجة الحسين أيضاً.

في الأقطار العربية الأخرى. ولكن هذا الشعر كله أو أكثره لم يجد من يعنى به فيحفظه. فالتاريخ يحتفظ برثاء عاتكة لأزواجها جميعاً، ولكنه لا يحتفظ من رثائها لمحمد ابن أبي بكر بغير بيت واحد، ولا يحتفظ لها برثاء في عمرو ابن العاص. وينطبق الأمر نفسه على جميع أفراد الأسرة بل أننا نعرف أشياء عن هذه الأسرة لأنها الحاكمة، فكم أسـرة كانت تقول الشعر ولم تكن حاكمة، فلم يحتفظ لنا التاريخ منها بشيء.

الأكدر بن حمام اللخمي

أول مشكلة تواجه الباحث في الأدب العربي النصوص: أين يجدها، وكيف يعثر عليها، ويجمعها، ويصنفها. فالتأليف العربي نهج على الإستطراد الواسع النطاق، يضع المؤلف لكتابه عنواناً قد يشير إلى موضوع أو موضوعات معينة وقد لا يعني شيئاً البتة، وإنما هو حلية. ثم يورد المؤلف تحت هذا العنوان أشتاتاً من المعارف العربية، لا يضبطها ضابط، ولا يسيطر على تسلسلها غير توارد الأفكار.

وواجب على الباحث أن ينقب في الكتب التي يظن أنها قد تحتوي على أشياء ذات صلة بما يبحث، والكتب التي لا يظن أن فيها شيئاً. فربما كانت النتيجة خلاف ما ظن وما أكثر ما كانت كذلك.

وإذا كانت تلك إحدى المشاكل التي تواجه الباحث في الأدب العربي، فإنها المشكلة الكبرى أمام الباحث في الأدب العربي في مصر. وكأن التاريخ المصري كله معتمد على

التنقيب. فالباحث عن الحضارة الفرعونية لا بد له من التنقيب في بطون الأرض، والباحث عن الحضارة العربية لا بد له من التنقيب في بطون الكتب.

وتستبد الفرحة بالباحث الأول إن عثر على أثر سليم أو محطم، كامل الأجزاء أو ناقصها، فيأخذ على عاتقه أن يرمم هذا الأثر، وأن يفك نقوشه، وأن يستلهم الموجود منها ما يدل على الفاقد وكذا الأمر لدى الباحث العربي. قد يجد أثراً سليمًا كاملًا، وربما لم يجد إلا إشارات، أو متفرقات ويقتضي منه المنهج السليم أن يستوحيها ويخرج منها بما يضيء له الطريق من نتائج.

وحديث الليلة عن أثر من هذه الآثار: رجل قال الشعر في موطنه الأول: شبه الجزيرة العربية، ثم دخل مصر مع الداخلين وقضى فيها الشطر الأخير من حياته، ولم نعثر على شعر له بعد: ذلك هو الأكدر ابن حمام اللخمي.

ولخم قبيلة عربية كبيرة كانت تسكن مناطق متفرقة من الشام والعراق، ثم انخرطت في جيش عمرو بن العاص القادم إلى مصر لغزوها وبعد الغزو انتشر اللخميون في مناطق متفرقة من مصر فنزلوا الفسطاط والشرقية والإسكندرية والفيوم والبر الشرقي، من الصعيد.

وكان من الداخلين إلى مصر من اللخميين حمام بن عامر

اللخمي وابنه الأكدر. ولا تروي المراجع التاريخية والأدبية عن الأكدر قبل دخوله مصر غير حادث واحد. إذ تقول أنه هو الذي بعث إلى قريش في مكة شعراً ينذرها بخروج النبي عليه الصلاة والسلام من المدينة إلى بدر، ليقطع الطريق على تجارتها القادمة من الشام وكان ذلك بطبيعة الحال قبل أن يُسلم الأكدر.

وأحب الأكدر التفقه في الدين، فجالس الصحابة، وأخذ منهم وروي عنهم، حتى صار ـ في وصف الواصفين له: «ذا دين وفضل وفقه في الدين».

وعندما انقسم العالم الإسلامي على نفسه في فتنة عثمان، وظهر في مصر حزبان قويان: يناصر أحدهما الخليفة القائم: عثمان، ويدعو الثاني لخلافة علي بن أبي طالب، كان الأكدر بن حمام من أنصار الحزب العلوي، بل المتحمسين له. فكان هو وأبوه من الخارجين من مصر إلى المدينة، واشترك في حصار عثمان الذي انتهى بمقتله.

ولما آلت الأمور إلى بن أمية، وخضع العالم الإسلامي كله لمعاوية بن أبي سفيان، عفا عن الأكدر، بل كان يكرمه ويرفع مجلسه ويدفع إليه عطاءه، تألفاً لقومه به.

ولكن ذلك لم يُذهب حقد الأكدر على الأمويين. فما أن انقسم المسلمون ثانية أيام عبد الله بن الزبير، وانسلخت

مصر عن دولة الأمويين. حتى شارك الأكدر في الفتنة، بل كان أحد رؤسائها. وقد صار سيد لخم وشيخها.

وعندما عبأ مروان بن الحكم جنده لغزو مصر، تولى الأكدر قيادة الأسطول المصري الذاهب لغزو الشام. ولكن عوامل الطبيعة غالبته. إذ ثارت العواصف البحرية فشتت الأسطول، وأغرقت بعض سفنه، ونجا بعضها الآخر ضعيفاً واهناً. فاضطر إلى العودة إلى مصر. وكان الأكدر من الناجين. فاشترك في الحرب البرية، واضطلع بنصيب أثار حفيظة مروان عليه. فعزم على الغدر به.

وانتظر عليه مدة. ثم ألب عليه قوماً من أهل الشام فادعوا عليه قتل رجل منهم. فدعاه دون أن يطلعه على الأمر. وما أن دخل مجلسه، حتى حاكمه على القضية المزعومة، وأقام عليه الشهادة، وأثبت الجرم، وحكم عليه بالقتل، ونفّذه. وما أن تسامع الناس بالخبر، حتى اجتمع بنو لخم والجند المصري، وحاصروا مروان بن الحكم، عازمين على قتله. وخاف مروان على نفسه وأغلق بابه. وبلغ الخبر إلى كريب بن أبرهة، وكان من رؤساء المصريين ذوي الميول الأموية، فبادر إلى مروان، وحماه منَ الثائرين به.

قال شاهد عيان يصف الأمر: «كنت واقفاً بباب مروان، حين أُتي بالأكدر ليس معه أحد من قومه. فأُدخل على مروان. فلم يكن شيء أسرع من قتله. وتنادى الجند: قتل الأكدر. فلم يبق

احد حتى لبس سلاحه. فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفاً. وخشي مروان وأغلق بابه. ومضت طائفة منهم إلى كريب بن أبرهة، فلقوه وقد توفيت امرأته بسيسة بنت حمزة بن يشرح بن عبد كلال، فهو مشغول بجنازتها. فقالوا: «يا أبا رشدين، أيقتل الأكدر؟ اركب معنا إلى مروان» قال: انتظروني حتى أغيب هذه الجنازة. فغيبها ثم أقبل معهم. فدخل على مروان. فقال: «إليَّ يا أبا رشدين». فقال: «بل إليَّ يا أمير المؤمنين». فأتاه مروان. فألقى عليه كريب رداءه وقال للجند: «انصرفوا، أنا له جاز». فوالله ما عطف أحد منهم وانصرفوا إلى منازلهم. وكان قتل الأكدر للنصف من جمادي الآخرة سنة خمس وستين».

وقال زياد بن قائد اللخمي يرثي الأكدر:

كما لقيت لخم ما ساءها
بأكدرَ، لا يَبْعَدَنْ أكدرُ
هو السيفُ أُجرِدَ من غمده
فلاقى المنايا وما يشعر
فلهفي عليك غداةَ الردى
وقد ضاف وردك والمصدر
وأنت الأسير بلا مَنْعَة
وما كان مِثْلُك يستأسر

ولم يصل إلينا من شعر الأكدر سوى القطعة التي أرسلها لقريش

يحذرها فيها. قال:

قــد نَفَّــرتْ من رفقَتِي محــمــدِ
وعجــوةٍ من يثـرب كــالعنجـد
تهــوى عــلى دين أبيهــا الأتلد
قـد جعلت ماء قـديد مـوعـدي
وماء ضَجْنان لها ضحى الغد

فهل نظم الأكدر شعراً في مصر. ذلك أمر غير بعيد. ومهما يكن من أمر، فالأكدر بن حمام اللخمي شاعر عاش في مصر.

أبو أيُّوب الأنصاريّ

وهذا رجل من الصحابة، طار صيته في عالمي الحرب والولاية الدينية، فلم تستطع الظلمات أن تغطي أي جانب من جوانب حياته، على شيء من الأهمية، كما فعلت مع غيره من الرجال. ودخل هذا الصحابي مصر، وقال الشعر في بعض مراحل حياته، ولكن أحداً لم يعرض له في أدبه، وإن عرضوا له كثيراً من حروبه ومكانته الدينية في حياته وبعد مماته.

هذا الرجل هو أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد من بني النجار، من أهل المدينة. وكان من أوائل المسلمين بها، فشهد العقبة الثانية التي بايع فيها الأنصار الرسول عليه الصلاه والسلام، وعاهدوه على حمايته، والدفاع عنه وعن دعوته.

ولما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، نزل بمنزل أبي أيوب الأنصاري وشغل أول الأمر الطابق الأسفل من البيت ثم انتقل إلى الأعلى، لسبب رواه لنا أبو أيوب نفسه قال: «نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا الأسفل. وكنت في الغرفة فأريق ماء في الغرفة، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة نتتبع

الماء، شفقة أن يخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء. ونزلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مشفق. فقلت: يا رسول الله، إنه ليس ينبغي أن نكون فوقك، انتقل إلى الغرفة. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمتاعه أن ينقل، ومتاعه قليل». ولم يزل الرسول عليه الصلاة والسلام عنده حتى بنى مسجده في تلك السنة وبنى مساكنه، فانتقل إليها.

وكان أبو أيوب نِعْم المنفِّذ المخلص لبيعته، فدافع عن الإسلام أحسن الدفاع، وجاهد في الدعوة له أجمل الجهاد، وأبلى في حياته كلها أعظم البلاء، فشهد سائر المشاهد والغزوات مع الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان هو والمقداد بن الأسود يريان أن المسلم مأمور بالجهاد على كل حال من أحواله، ويعتمدان في ذلك على قوله تعالى: «انفروا خفافاً وثقالاً» (سورة التوبة، الآية ٤١) ويقول أبو أيوب: فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً. فلم يتخلف عن الغزو والجهاد إلا عاماً واحداً، أعطيت فيه قيادة الجيش لشاب حدث، قيل أنه عبد الملك بن مروان، فقعد ولم يخرج مع ذلك الجند. فجعل بعد ذلك يتلهف ويقول: وما على من استعمل عليّاً؟ ولم يعد إلى التخلف حتى مات في الغزو.

وكان أبو أيوب حاد الخلق، عنيفاً في تلبيته دواعي الدين. لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ودخلهاأول ما دخل، ترك الزمام لناقته، لتبرك به حيث تبرك، فينزل في الموضع

الذي اختارته ناقته كيلا يغضب أحد فلما بركت الناقة عند بيت أبي أيوب، تعرض لها جبار بن صخر ونخسها برجله لتقوم. فرآه أبو أيوب، فغضب وقال له: يا جبار، عن منزلي تنخسها؟ أما والذي بعثه بالحق، لولا الإسلام لضربتك بالسيف[1].

وكان بعض المنافقين يحضرون المسجد، فيستمعون إلى أحاديث المسلمين، ويسخرون ويستهزئون بهم وبدينهم. فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لَصِق بعضهم ببعض. فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً. قام أبو أيوب الأنصاري إلى عمرو بن قيس - وكان كاهن آلهة بني النجار في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه في المسجد، حتى أخرجه منه، والمنافق يقول: أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟! ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وديعة النجاري، فلبَّبَه بردائه ثم نَتَره نتراً شديداً، ولطم وجهه. ثم أخرجه من المسجد. وهو يقول له: أف لك منافقاً خبيثاً أدراجَك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا ١: ١٨٦.

(١) السيرة النبوية ٢: ١٧٥.

وكان أبو أيوب يتحرى رضا الرسول، ويخاف عليه ما لا يخاف على نفسه. فعندما غزا النبي صلى الله عليه وسلم خيبر، وسبى صفية بنتُ حيَ اليهودي، وأعرس بها في قبة له، بات أبو أيوب متوشحاً سيفه، يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُطيف بالقبة، دون أن يعلم الرسول. فلما أتى الصباح، ورأى الرسول أبا أيوب على هذه الصورة، سأله: مالك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك. فدعا له الرسول وقال: اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني[٢].

وذكر ابن عبد الحكم[٣] أن أبا أيوب شهد فتح مصر، فكان أحد الصحابة من الأنصار الذين دخلوا مع جيش الغزو الإسلامي.

ولا تبين لنا المراجع المدة التي أقامها أبو أيوب في مصر، ولكن يبدو أنه لم يطل المقام بها. فابن عساكر يروي عن أبي زرعة النصري: قدم علينا دمشق من الأنصار في إمارة معاوية أبو أيوب الأنصاري. ويذكر ابن الأثير[١] أن أبا

---

(٢) السيرة ٣: ٣٥٤.
(٣) فتوح مصر ٩٣.
(١) الكامل ٣: ٦٠.

أيوب كان مع معاوية في غزو الصائفة بالروم في سنة ٢٣ هـ.

ويغيب أبو أيوب عن أنظار التاريخ طوال عهد عمر وعثمان، حتى تعم الفتنة، ويأتي المحاصرون لحصار عثمان. فيظهر أبو أيوب في المدينة، وتظهر منه ميول معتدلة نحو علي بن أبي طالب. فلما حث زيد بن ثابت الأنصاري على معاونة عثمان والدفاع عنه. وقال لهم: يا معشر الأنصار، كونوا أنصاراً لله مرتين. اتهمه أبو أيوب بأنه مغرض في هذه الدعوة، وقال له: ما تنصره إلا لأنه أكثر لك من العبدان.

وولى علي الخلافة، واضطر إلى مغادرة المدينة، والرحيل إلى العراق، لملاقاة من خرجوا عليه. فولى علي المدينة سهل ابن حنيف ثم عزله وولى تمام بن العباس ثم عزله وولى أبا أيوب الأنصاري. وبقي أبو أيوب مدة في المدينة ثم رحل عنها ليلحق بعلي في العراق، واستخلف رجلاً من الأنصار عليها. ولسنا ندري على وجه اليقين المدة التي أقامها أبو أيوب في المدينة، ولكنها كانت أحد أسباب اختلاف كبير بين المؤرخين بصدد اشتراك أبي أيوب في حروب علي.

فذكر ابن عبد البر وابن الأثير أنه كان مع علي في حروبه كلها. وقال ابن الكلبي وابن إسحاق: شهد أبو أيوب مع

(٢) الكامل ٣: ٢٨٨.

علي الجمل وصفين. ولكن الحكم بن عتيبة أنكر ذلك. قال شعبة: سألت الحكم: أشَهد أبو أيوب صفين مع علي رضي الله عنه؟ قال: لا. ولكنه شهد النهروان. والحق أن نصر بن مزاحم لم يبين لأبي أيوب أي موقف خاص في وقعة صفين، عدا الشعر الذي نسبه إليه. ولعل ذلك يؤيد قول من قال إنه خرج مع علي في صفين، ولكنه لم يشترك في القتال تحرجاً وتديناً.

وإذا كان المؤلفون قد اختلفوا في وقعة صفين، فإنهم قد اتفقوا في معركة النهروان، ورووا جميعاً اشتراكه فيها. فقد بعثه الإمام علي إلى الخوارج قبل القتال ليدعوهم إلى السلام، ويعيدهم إلى جماعة المسلمين. فخطبهم فقال: عباد الله، إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنا عليها، ليست بيننا وبينكم فرقة، فعلام تقاتلوننا؟. إنا لو تابعناكم اليوم حكّمتم غداً. فقال: فإني أنشدكم الله أن تعجّلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابل. ولكنهم لم يسمعوا له.

ولما عبأ علي جيشه، أعطى أبا أيوب راية الأمان. فنادى في الخوارج: من جاء تحت هذه الراية فهو آمن، ومن لم يقتل ولم يستعرض، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة، فهو آمن، لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم.

وفي القتال، جعله عليّ على الخيل في المقدمة.

وبعد الحرب عاد - فيما يبدو - أبو أيوب إلى المدينـة، وبقي والياً عليها إلى سنة ٤٠ هـ. فبعث معاوية بُسْر بن أرطاة إلى الحجاز واليمن لينكل بأنصار علي وكل من لا يتابع معاوية. ورأى أبو أيوب ألا قبـل له ببسـر، فترك المدينة، ولحق بعلي في العراق، وبقي معه إلى أن قتل.

وذكر ابن يونس، مؤرخ مصر، مرة أخرى قدم فيها أبو أيوب الأنصاري إلى مصر، إذ قال: قدم مصر لغزو البحر سنة ست وأربعين.

ولا نعود نسمع عن أبي أيوب إلا عند وفاته. فقد خرج مـع الجيش الـذي أرسله معـاويـة بن أبي سفيـان لغـزو القسطنطينية، وجعل قيادته لابنه يزيد. فمرض في أثنـاء الحرب. ولما اشتد به المرض، عاده يزيد وسأله: ما حاجتك أبا أيوب؟ فقال: أما دنياكم فلا حاجة لي فيهـا، ولكن قدِّمني ما استطعت في بلاد العدو. فلما مات، أمر يزيد بتكفينه وحمله على سـريره ثم أخـرج الكتائب. فجعلت تتقدم، وتقاتل أشد القتال والسرير بينها، إلى أن عجزت عن التقدم. فدفنوه تحت أسوار القسطينطينية وقيل أن يزيد أمر بالخيل فجعلت تدبر وتقبل على قبره حتى أمحى أثره.

وكثرت القصص حول أبي أيوب وقبره. فقيل أن الروم قالت للمسلمين في صبيحة دفنهم لأبي أيوب: لقد كان لكم الليلة شأن. فقالوا: هذا رجل من أكابر أصحاب نبينا صلى

الله عليه وسلم، وقد دفناه حيث رأيتم، والله لئن نُبش لا ضُرِب لكم ناقوس في أرض العرب ما كانت لنا مملكة.

وقيل أن السائل كان قيصر الروم، فعل ذلك حينما رأى المسلمين يقتتلون حول السرير، فأرسل إلى يزيد يسأله: ما هذا الذي أرى؟ فأجابه: صاحب نبينا، وقد سألنا أن نقدمه في بلادك، ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله. فأرسل إليه: العجب كل العجب كيف يَدْهَي الناس أباك، وهو يرسلك فتعمد إلى صاحب نبيك فتدفنه في بلادنا، فإذا وليت أخرجناه إلى الكلاب. فقال يزيد: إني والله ما أوردت أن أودعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم، فإنك كافر بالذي أكرمت هذا له، لئن بلغني أنه نبش من قبره أو مُثِّل به، لا تركتُ بأرض العرب نصرانياً إلا قتلته، ولا كنيسة إلا هدمتها. فبعث إليه قيصر: أبوك كان أعلم بك، فَوَحَقّ المسيح لأحفظنَّه بيدي سنة.

وقال ابن عبد ربه: بلغني أنه بنى على قبره قبة يسرج فيها إلى اليوم. وقال مجاهد: كانوا [أي الروم] إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فمطروا. وقال مالك: بلغني عن قبر أبي أيوب أن الروم يستصحون به ويستسقون. ولا زال لقبره مكانة عظيمة عند عامة الأتراك.

واختلف المؤرخون في تاريخ غزوة القسطنطينية، فاختلفوا تبعاً لذلك في تاريخ وفاة أبي أيوب، بين سنتي ٤٩ و ٥٥.

ولكن أكثر الأقوال ترى أن التاريخ الصحيح هو سنة ٥٢ هـ.

ووهم البخاري فصرح بأن أبا أيوب الأنصاري مات في زمن يزيد بن معاوية؛ اختلطت عليه إمرة يزيد لجيش القسطنطينية بخلافته.

ولم يصرح أحد ممن ترجم لأبي أيوب بأنه كان شاعراً، ولكن وصلت إلينا مقطوعة قالها في صفين، ورواها نصر بن مزاحم. ذكر أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى أبي أيوب رسالة جاء فيها: «لا تنسى شيباءُ أبا عُذْرتها، ولا قاتل بِكْرها» وكتب في أسفلها:

أبلغ لديك أبا أيوبَ مألكةً
أنّا وقومك مثل الذئب والنّقَدِ
إما قتلتم أمير المؤمنين فلا
ترجوا الهوادةَ عندي آخرَ الأبد
إن الذي نلتموه ظالمين له
أبقَتْ حرارتُه صَدْعاً على كبدي
إني حلفتُ يميناً غير كاذبةٍ
لقد قتلتم إماماً غير ذي أود
لا تحسبوا أنني أنسى مصيبته
وفي البلاد من الأنصار من أحد

أَعْـــزِزْ عليَّ بـأمـــرٍ لستَ نـائله
واجْهَـدْ علينا فلسنـا بيضة البلد
قد أبدل الله منكم خيرَ ذي كَلَعٍ
واليَحْصُبيِّين أهلَ الحق في الجَنَد
إن العـراق لنـا فقـــع بقَـرْقـــرةٍ
أو شَحْمـة بَزَّهـا شاوٍ ولم يكـد
والشـام ينزلهـا الأبـرار، بلدتُهـا
أمْنٌ، وحَـوْمَتُها عِـرِّيسـة الأسـد

فلم يدر أبو أيوب ما يريد معاوية بالشيباء فقال له علي بن أبي طالب: نعم، هذا مثل ضربه لك، يقول: ما أنسى الذي لا تنسى الشيباء، لا تنسى أبا عذرتها، والشيباء المرأة البكر ليلة افتضاضها، لا تنسى بعلها الذي افترعها أبداً، ولا تنسى قاتل بكرها. . . كذلك لا أنسى أنا قتل عثمان. وقال علي أيضاً: لشد ما شحذكم معاوية يا معشر الأنصار، أجيبوا الرجل. فقال أبو أيوب: يا أمير المؤمنين، ما أشاء أن أقول شيئاً من الشعر يعيا به الرجال إلا قلته. قال: فأنت إذن أنت.

فكتب أبو أيوب إلى معاوية: «أما بعد، فـإنك كتبت إليَّ: لا تنسى الشيباء ثكل ولدها ولا أبا عذرتها، فضربتها مثلاً بقتل عثمان. وما نحن وقتل عثمان؟! إن الذي تربص بعثمان؟! وثَبَّط يزيد بن أسد وأهلَ الشام في نصرته لا أنت

وإن الذين قتلوه لغير الأنصار!» وكتب في آخر كتابه:

لا توعِدنا ابنَ حربٍ إننا بشرٌ
لا نبتغي وُدّ ذي البغضاء مَن أحدِ
فاسقوا جميعاً بني الأحزاب كلكم
لسنا نريد وَلاكم آخرَ الأبد
نحن الذين ضربنا الناس كلهم
حتى استقاموا وكان عُرضةَ الأود
والعامَ قصْرُك منا أن أقمت لنا
ضرباً يزيل بين الروح والجسد
أما عليٌّ فإنا لن نفارقه
ما رقرق الآلُ في الداويّة الجَرَد
إما تبدلتَ منا بعد نُصرتنا
دين الرسول أُناساً ساكني الجَنَد
لا يعرفون أضلّ سَعْيهم
إلا اتّباعكم، يا راعي النَّقد
فقد بغى الحقَّ هَضْماً شَرُّذي كَلَعٍ
واليحصبيون طرّا بيضةُ البلد
ألاّ ندافع كفّا دونَ صاحبها
حد الشقاق ولا أم ولا ولد

ويدل الخبر نفسه على أن أبا أيوب لم يعرَف عنه قول الشعر، بحيث أراد علي بن أبي طالب أن يعهد إلى غيره

بالرد على معاوية. ولكنه يدل في الوقت نفسه على أن أبا أيوب لم يكن بعاجز عن قول الشعر الذي يعي الرجال.

وقد دخل أبو أيوب مصر مرتين محارباً. فهل قال فيها شعراً؟ ذلك أمر غير بعيد.

شاعر الحياد العذري

تمتعت مصر بمركز خاص في العصور الإسلامية، جعل الخلفاء الأقوياء الذين عركتهم السياسة وعركوها، يطلقون يد ولاتها في تصريف شؤونها، ويمنحونهم سلطات واسعة. فعل ذلك عمر بن الخطاب في العهد الراشدي مع عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان في العهد الأموي مع عمرو أيضاً، وعبد الملك بن مروان في العهد المرواني مع أخيه عبد العزيز. فأدى ذلك إلى استتباب الأمن، واستقرار الأمور، وازدهار الأحوال، فصارت مصر موطن إغراء وجَذب، يهرع إليها الطامحون والطامعون من الأدباء والعلماء وغيرهم. وإن صدق هذا القول بعض الصدق على العهود الثلاثة المذكورة، فهو أعظم صدقاً، وأجمل انطباقاً، على عهد عبد العزيز بن مروان. فقد كان ولياً لعهد عبد الملك بن مروان، ومطلق الحرية في شؤون مصر السياسية والمالية والإدارية. فوفد عليه الوافدون من الشعراء والمغنين والعلماء آملين أن يصيبوا غنى أو شيئاً من غنى.

وكان من هؤلاء الوافدين الشاعر الذي يُعرِّف به هذا البحث: أيمن بن خريم الأسدي.

ويقال له أيمن بن خريم بن الأخرم بن شداد بن عمرو بن فاتك، ويُختصر الإسم أحياناً فيقال: أيمن بن خريم بن فاتك. فذهب بعض الرواة إلى أن جده الأخرم يلقب فاتكاً، وذهب بعضهم الآخر إلى أن فاتكا هو ابن الأخرم. وهو من أسد ابن خريمة.

واختلف المؤرخون في تاريخ إسلام أبي أيمن فذهب البخاري وابن عبد البر وغيرهما إلى أن أبا أيمن وعمه أسلما وقاتلا مع الرسول عليه الصلاة والسلام في بدر. وأنكر ذلك ابن سعد، وقال: «قال محمد بن عمر عمن روى عنه السيرة من أهل العلم: إنهما لم يشهدا بدراً. قال: وفي رواية محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة وأبي معشر ومحمد بن عمر: ولم يشهدها إلا قريش والأنصار وحلفاؤهم ومواليهم» (الطبقات ٦: ٢٥). وذهب ابن عساكر إلى أنهما شهدا الحديبية، وقال: «قال المفضل الغربي: كان الواقدي ينكر أن والد أيمن وعمه شهدا بدراً، وغير الواقدي من علمائنا أشد إنكاراً لذلك، وقالوا: إن أهل بد معروفون لا يستطاع الزيادة عليهم ولا النقصان» (تاريخ دمشق ٣: ١٨٨).

وروى ابن عبد البر أن هناك من قال: «إن خريماً هذا

وابنه أيمن بن خريم أسلما جميعاً يوم فتح مكة»، وضعّف هذا القول: (الإستيعاب ٤٢، ١٦٥). وذهب الواقدي إلى أن الأب والعم أسلما بعد فتح مكة قال ابن حجر: «قال محمد بن عمر: ... إنما أسلما حين أسلم بنو أسد بعد لفتح» (الإصابة ٢: ١٠٩).

وإن اختلف العلماء في تاريخ إسلام أبي أيمن وعمه، فقد اتفقوا على أنه أسلم يوم فتح مكة، وهو غلام يافع.

ولكنهم لم ينعموا بهذا الإتفاق طويلاً. فسرعان ما اختلفوا في صحبته وروايته عن الرسول صلى الله عليه وسلم. فذكر ابن السكن والمرزباني صحبته بصيغة الشك، قال أولهما: «يقال له صحبة». وقال الثاني: «قيل له صحبة». أما المبرد فأعلن رأيه واضحاً، قال: «له صحبة» (الإصابة ١: ٩٤).

وقال ابن عبد البر: «قال الدار قطني: قد روى أيمن بن خريم عن النبي صلى الله عليه وسلم: وأما أنا فما وجدت له رواية إلا عن أبيه وعمه» (الإستيعاب: ٤٢) وعقب ابن حجر على هذا القول بقوله: «أخرج له الترمذي حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، واستغربه، وقال: لا نعرف لأيمن سماعاً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ولم يقف ابن عبد البر على هذا الحديث». وقال أحمد محمد شاكر في

تعليقاته على الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص ٥٢٦): «وقد روى الإمام أحمد في المسند ٤: ١٧٨، ٢٣٣ والترمذي في السنن ٢: ٤٨ من طريق سفيان ابن زياد عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال: يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله، ثلاثاً ثم قرأ: «فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور» وقال الترمذي: وهذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد، وقد اختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي صلى الله عليه وسلم. ثم رواه من طريق سفيان بن زياد عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأسدي عن خريم بن فاتك الأسدي ثم قال: هذا عندي أصحّ وخريم بن فاتك له صحبة. والذي أراه أن الإسنادين صحيحان».

واختلفت الأقوال في البلد الذي نزحت إليه أسرة أيمن بعد الفتوح الإسلامية. فقال ابن عبد البر عن أبيه: «عداده في الشاميين» ثم قال: «يعد في الكوفيين». وقال ابن الأثير: «نزل الرقة». وقال ابن حجر عن الأب والعم: «فتحولا إلى الكوفة فنزلاها. وقيل نزلا الرقة وماتا بها في عهد معاوية» ويتبين من ابن عساكر أنهما نزلا الشام في أثناء الفتوح، إذ قال: «وكان خريم على قسم الدور بدمشق حين فتحت.

وقد قيل: إن أخاه سبرة[1] هو الذي قسم الدور» (تاريخ دمشق ٥ : ١٢٩).

وقال ابن عبد البر عن أيمن: «شامي الأصل نزل الكوفة» وأظن أن سبب هذا الإختلاف كثرة التنقل فلعل خريم بن الأخرم تنقل بين البلدان المفتوحة كما فعل ابنه من بعده.

واتخذ أيمن بن خريم وأبوه موقفاً خاصاً من الفتن التي أغرقت العالم الإسلامي في المنازعات والخصومات والقتال، لم يحد أحدهما عنه البتة، ذلك هو ما كان يسمى قديماً الإعتزال وما نعرفه اليوم باسم الحياد، ولكنه حياد مشبع بالعطف على الخليفة القائم. وكان أيمن في عهد عثمان عثمانياً (التنبيه والإشراف للمسعودي ٢٥٣). وبكاه بعد مقتله بقوله:

تعاقد الذابحو عثمانَ ضاحيةً
أيَّ قتيلٍ حرام ـ ذُبِّحوا! ـ ذَبَحُوا

ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ولم
يخشوا على مطمح الكُفْر الذي طمحوا

فأيَّ سُنَّةِ جورٍ سَنَّ أولهُم
وبابِ جور على سلطانهم فتحوا

ماذا أرادوا أضلّ الله سعيهمُ
من سفح ذاك الدم الزاكي الذي سفحوا

فاستوردتْم سيوفُ المسلمين على
تمامِ ظِمىءٍ كما يُسْتَورد النَّضح
إن الـذين تـولـوا قتله سفهـا
لاقَوْا أثاماً وخُسْراناً فما ربحـوا

واعتزل أبو أيمن حرب الجمل وصفين وما بعدهما من الأحداث فلم يحضُرها (الأغاني ٢١ : ٥. التنبيه ٣٨). أما أيمن فقد خرج في حرب صفين، ولكنه حافظ على حياده، ولم يشترك في القتال. وعبر نصر بن مزاحم، المؤرخ الشيعي عن هذا الموقف أكثر من مرة، بما يفيد أن هوى أيمن كان مع علي، فقال: «كان أنسكَ رجل من أهل الشام وأشعره، وكان في ناحية معتزلاً» (وقعة صفين ٤٩٠). وقال: «وهو معتزل لمعاويـة، وكان هـواه أن يكون هـذا الأمر لأهـل العراق» (ص ٥٧٥). وقال: «وكان قد اعتزل علياً ومعاوية ثم قارب أهل الشام ولم يبسط يداً» (ص ٥٧٧).

ولا أستطيع أن أعلل عـلى وجه اليقـين هذا المـوقف الغريب. ولكن ربما كان السبب في خروجه مع معاوية أن قومه بني أسد خرجوا معه، وأنه كان يقيم بـالشام، إلى جانب تأثره بمقتل عثمان. أما سبب عدم اشتراكه في القتال فعدم اقتناعه بسلامة موقف معاوية وحقه في مخاصمة علي. والدليل على أن بني أسد نصروا معاوية القصيدة التي قالها أيمن نفسه، يعاتب فيها معاوية عندما تنكر لهم. قال:

أبلغْ أميـر المؤمنيـن رسـالـةً
من عـاتبين مسـاعـرٍ أنجـادِ
مَـنَّيْتَـهـم إنْ آثـروك مثـوبـة
فَـرَشَدْتَ إذ لم تُـوفِ بالميعـاد
لـولا مقـام عشيـرتي وطعـانهم
وجـلادهم بـالمَـرْجِ أيَّ جِـلاد
لأتـاك أشتـر مـذحـج لا ينثني
بـالجيش ذا حَنَق عـليـك وآدِ

ويدل على أنه كان يعطف على عليّ وأصحابه المقطوعات الثلاث التي قالها في مواقع صفين، يمجد فيها اليمنيين من أهل العراق، وينتقص من أصحاب معاوية، وينصح علياً باختيار عبد الله بن عباس ليمثله في التحكيم بدلاً من أبي موسى الأشعري وقد أدى هذا الشعر بالعلماء إلى أن يقولوا عن أيمن: «إنه كان يتشيع» (الأغاني ٢١ : والتنبيه ٣٧).

ويدعم هذا القول القصيدة التي نظمها أيمن بن خريم في مدح بني هاشم، وقال فيها:

نـهـاركـم مـكـابـدة وصـوم
وليـلتكـم صـلاة واقـتـراء
ولـيتـم بـالقـرآن وبـالتـزكي
فـأسـرع فيكـم ذاك البـلاء

بكى نجـد غداة غـد عليكم
ومكـة والمـدينـة والـجـواء
وحق لكـل أرض فـارقـوهـا
عليكم - لا أبـالكـم - البكـاء
أأجـعـلكـم وأقـوامـاً سـواء
وبـينـكـم وبـينـهـم الـهـواء
وهـم أرض لأرجـلكـم وأنـتـم
لأرؤسهم وأعـينـهـم سـمـاء

فهذه القصيدة صريحة في تفضيل بني أمية، وإن صحت نسبتها إلى أيمن كانت دليلاً أي دليل على تشيعه. وكان عبد الملك بن مروان يعجب بالمنحى الذي سلكته في المدح، ويود لو أضفى عليه الشعراء مثل ما فيها من صفات. كان يقول: «يا معشر الشعراء، تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرة بالجبل الأوعر ومرة بالبحر الأجاج، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم؟». وفات عبد الملك أن الأمويين لم يكن لهم الإيحاء الديني والدلالات الوجدانية، التي كانت لبني هاشم إذ ذاك لارتباطهم بالرسول عليه الصلاة والسلام.

وانتابت الفتن العالم الإسلامي، مرة أخرى أيام مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير. فلجأ الشاعر إلى موقفه المعهود.

فمدح الأمويين وعطف عليهم عندما نفاهم عبد الله بن الزبير عن الحجاز، وقال:

كـأن بني أمـيـة يـوم راحـوا
وعُـرِّي عـن منـازلـهم صِـرارُ
شمـاريـخ الجبـال إذا تَرَدَّتْ
بـزينتـهـا وجـادتْهـا الـقِـطار

ولكن عندما طلب إليه مروان أن يخرج ليقاتل معه، قال له: إن أبي وعمي شهدا بدراً[1] وإنهما عهدا إلي ألا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله، فإن جئتني ببراءة من النار قاتلت معك. فقال: إذهب. ووقع فيه وسبه. فقال أيمن[2]:

ولست مقـاتـلاً رجـلاً يصـلي
على سلطان آخـر من قـريش
لـه سـلطانـه وعـليَّ إثـمـي
مـعـاذ الله من سـفـه وطـيش
أأقتـل مسلماً في غيـر جـرم
فليس بنافعي ـ ما عشت ـ عيش

(١) رأينا الخلاف في شهودهما بدراً، وجعلها ابن عساكر الحديبية.
(٢) ذهب نصر بن مزاحم إلى أن الأبيات قيلت في عليّ ومعاوية، وإلى أن معاوية جعل له فلسطين على أن يتابعه ويشايعه على قتال عليّ فرفض. (وقعة صفين٥٧٧) وذهب ابن قتيبة إلى أنها قيلت في عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير. (الشعر والشعراء ٥٢٧).

وذكر العتبي أن منازعة وقعت بين عمرو بن سعيد وعبد العزيز بن مروان[٣]. فتعصب لكل واحد منهما أخواله، وتداعوا بالسلاح واقتتلوا. وكان أيمن بن خريم حاضراً المنازعة فاعتزلهم هو ورجل من قومه يقال له ابن كوز. فعاتبه عبد العزيز وعمرو على ذلك. فقال:

أأقتل في حجاجٍ بين عمرو
وبين خصيمه عبد العزيز
أنقتل ضلة في غير شيء
ويبقى بعدنا أهل الكنوز
لعمر أبيك ما أوتيت رشدي
ولا وفقت للحرز الحريز
فإني تارك لهما جميعاً
ومعتزل كما اعتزل ابن كوز

وإذن فقد اتخذ أيمن من الإعتزال، وتجنب الفتن، والحياد بين المتقاتلين من المسلمين مبدأ له، تمسك به والتزمه. بل دعاغيره إلى الإحتذاء به حين قال:

إن للفتنة هَيْطاً بيِّناً
فروَيْدَ المَيْلَ منها يعتدلْ

(١) ذهب ابن عساكر إلى أن الأبيات قيلت في فتنة عمرو بن سعيد، وخروجه على عبد الملك بن مروان.

فـإذا كـان عـطاءٌ فـانـتـهـز
وإذا كـان قـتـال فـاعـتـزل

إنـمـا يـوقـدهـا فـرسـاننـا
حـطبَ النـار فـدَعها تشتعـل

ولم تكن هذه الدعوة، وذلك المبدأ، عند أيمن، انتهازية أو جبناً، وإنما كانا صادرين عن تدين عميق، وإحساس بعدم القدرة على التفرقة بين الحق والباطل، أو على نصرة الحق. وقد رأينا أبياته الدالة على هذا الإحساس الديني. أضف إلى ذلك أن المؤرخين يصفون أيمن، بأنه كان فراساً شاعراً شريفاً. (طبقات ابن سعد ٦: ٢٥. التنبيه ٣٧).

وإذا تركنا حديث الفتن والحروب، استطعنا أن نعد أيمن ابن خريم شاعر الأمويين. فقد اتصل بمعاوية بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، وأخويه عبد العزيز وبشر، ويحي بن الحكم، وعاش في كنفهم وتقلبت به الأحوال عندهم.

فإذا كنا قد رأينا أيمن في حروب صفين متردداً بين هواه العلوي، ومصلحته المادية، ومبدئه الحيادي، فإنه ما أسرع ما تخلص من هذا التردد بعد أن استتب الأمر لمعاوية. فاتصل به، ودافع عنه. روى نصر بن مزاحم أن أيمن قال في مجلس معاوية يرد على عامر بن واثله الشيعي، ويدافع عن الأمويين والعثمانيين (وقعة صفين ٦٤٠):

إلى رجبٍ أو غرة الشهر بعـده
يُصبِّحكم حمر المنايا وسودهـا
ثمـانين ألفـاً دينُ عثمـان دينهم
كتـائب فيهـا جبـرئيـل يقــودهـا
فمن عاش عبداً عاش فينا ومن يَمت
ففي النار يُسْقى مُهْلها وصديدَها

ويبدو أن معاوية كان يريد أن يوطد ملكه، ويدعو لحقه في الخلافة، بنشر مثل هذه الأقوال، حتى بعد مقتل علي وتفرده بالسلطة لأن ذلك يثبت في الأذهان حقه.

وروى بعض الرواة أن أيمن رثى معاوية بمقطوعة دالية. وذهب بعضهم الآخـر أن راثيه هـو عبد الله بن الـزَّبير الأسدي. ولم يعبر قائل الأبيات عن انفعال، اعتمـل في نفسه إزاء هذه الوفاة، أو إحساس أثاره هذا المصاب، وإنما لجأ إلى وصف وقعه على نساء الأمويين، قال:

رمى الحِـدثان نسـوة آل حـربٍ
بمقدارٍ سـمــدن لــه سمــودا
فــرد شعــورهن الســود بيضــاً
ورد وجــوهـهن الـبيض ســودا
فـإنـك لـو شهـدت بكـاء هنـد
ورمـلة إذ يصـفـقـن الـخــدودا

بكيت بكـاء معـولـة قـريـح
أصاب الدهـر واحدهـا الفريـدا

ولا نسمع عن صلات بين أيمن بن خريم والخلفاء، ولا نجد له شعراً فيهم، إلى عهد عبد الملك بن مروان. ولم يصل إلينا شعر من أيمن في مدح عبد الملك، وإنما وصل خبر أشبه بالطرف والنوادر. قال مجالد: «كان عبد الملك شديد الشغف بالنساء. فلما أسن ضعف عن الجماع وازداد غرامه بهن فدخل إليه يوماً أيمن بن خريم. فقال له: كيف أنت؟ فقال: بخير يا أمير المؤمنين. قال: فكيف قوتك؟ قال: كما أحب ولله الحمد، إني لآكل الجدعة من الضأن بالصاع من البر، وأشرب العس المملوء، وأرتحل البعير الصعب وأنصبه، وأركب المهر الأرِن فـأذ لله، وأفتـرع العذراء ولا يقعدني عنها الكبر، ولا يمنعني منها الحصر، ولا يروينها منها الغمر، ولا ينقص مني الوطر. فغاظ عبد الملك قوله وحسده، فمنعهُ العطاء، وحجبه، وقصده بما كره حتى أثر ذلك في حاله. فقالت له امرأته: ويحك! اصدقني عن حالك، هل لك جرم؟ قال: لا والله. قالت: فأي شيء دار بينك وبين أمـير المؤمنين آخـر ما لقيتـه. فأخبـرها. فقالت: إنا لله، من ها هنا أتيت، أنا أحتال لك في ذلك حتى أزيل ما جرى عليك، فقد حسدك الرجـل على مـا وصفت بـه نفسك. فتهيـأت ولبست ثيابهـا ودخلت على عاتكة زوجته. فقالت: أسألك أن تستعدي لي أمير المؤمنين

على زوجي! قالت: وما له؟ قالت: والله ما أدري أنا مع رجل أو حائط؟ وإن له لسنين ما يعرف فراشي، فسليه أن يفرق بيني وبينه. فخرجت عاتكة إلى عبد الملك فذكرت ذلك له، وسألته في أمرها. فوجه إلى أيمن بن خريم فحضر. فسأله عما شكت منه. فاعترف به. فقال: أو لم أسألك عاماً أول عن حالك فوصفت كيت وكيت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الرجل ليحتمل عند سلطانه، ويتجلد على أعدائه بأكثر مما وصفت نفسي به وأنا القائل:

لقيت من الغانيات العُجابا
لو أدرك مني الغواني الشبابا
ولكن جمع النساء الحسان
عناء شديد إذا المرء شابا
ولو كلت بالمدّ للغانيات
وضاعفت فوق الثاي الثيابا
إذا لم تنلهن من ذاك ذاك
جحدنك عند الأمير الكذابا
يَذُدن بكل عصا ذائد
ويصبحن كل غداة ضعابا
إذا لم يخالطن كل الخلا
ط أصبحن مخرنطمات غضابا
علام يكحلن حور العيون
ويحدثن بعد الخضاب الخضابا

ويعـــركن بـالمســك أجيــادهن
ويـدنين عنـد الحجـال العيـابـا

ويـغمــزن إلا لـمــا تعـلمــون
فـلا تحرمـوا الغانيـات الضرابـا

فجعل عبد الملك يضحك من قوله ثم قال: أولى لك يا ابن خريم لقد لقيت منهن ترحا، فما ترى أن نصنع فيما بينـك وبين زوجتـك؟ قال: تستـأجلها إلى أجـل العنين وأداريها لعلي أستطيع إمساكها. قال: أفعل ذلك. وردها إليه. وأمر له بما فات من عطائه، وعاد إلى بره وتقريبه». (الأماني ٢١ : ٨).

وذكر أبو الفرج أيضاً سبباً آخر للقصيدة؛ إذ قال «حدثنا عبد الله بن إدريس قال: أصاب أيمن بن خريم امرأةً له خطأ - يعني قتلها - فوداها عبد الملك بن مروان - أعـطى ورثتها ديتها - وكفر عنها كفارة القتل وأعطاه عدة جوار، ووهب له مالاً. فقال أيمن [الأبيات] فبلغني أن عبد الملك أنشد هذا الشعر، فقال: نعم الشفيع أيمن لهن» (الأغاني ٢١ : ١٠) وليس في الأبيات ما يؤيد هذا القول، أو يتصل به عن قرب أو بعد.

واعترف أيمن نفسه أنه استوحى هذه الأبيات من أبيات علقمة بن عبدة، إذ قال ابن قتيبة: «قال له عبد الملك لما أنشده هذا الشعر: ما وصف النساء أحد مثل صفتك، ولا

عرفهن أحد معرفتك. فقال له: لئن كنت صدقت في ذلك، لقد صدق الذي يقول:

فإن تسألوني بالنساء فإنني
خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له من ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه
وشرخ الشباب عندهن عجيب

فقال له عبد الملك: قد لعمري صدقتها وأحسنتها». (الأغاني ٢١: ١١).

ولا تذكر المصادر التي ترجمت لأيمن أو التي روت شعره أية صلات أخرى له بمن بعد عبد الملك بن مروان من خلفاء ولا تذكر شيئاً عن وفاته أيضاً. ولذلك أرجح أنه توفي في عهد عبد الملك بن مروان. وإن تحريت الدقة قلت في أواخر عهده بعد سنة ٧٧ هـ، إذ نظم شعراً في حروب غزالة امرأة شبيب الشيباني الخراجي في العراق، وكانت تلك الحروب في عامي ٧٦ و ٧٧ هـ.

ودخل أيمن بن خريم مصر. ولكن متى.. سؤال يحتاج إلى ترو في الجواب. فقد ذكر أبو الفرج عن الهيثم بن عدي أن أيمن خرج مع يحي بن الحكم في غزاة الصائفة بالروم.

فأصاب يحي جارية برصاء فقال: أعطوها أيمن بن خريم، وكان أبرص أيضاً فغضب وأنشأ يقول:

تركت بني مروان تندي أكفهم
وصاحبت يحي ضلة من ضلاليا
خليلاً إذا ما جئته أو لقيته
يهم بشتمي أو يريد قتاليا
فإنك لو أشبهت مروان لم تقل
لقومي هُجْراً إن أتوك ولاليا

وانصرف عنه فأتى عبد العزيز بن مروان أمير مصر (الأغاني ٢١ : ١٠).

ولا يذكر الطبري في تاريخه غزاة ليحي بن الحكم إلا واحدة كانت في سنة ٧٨ هـ. وإذن فهذا القول يدل على أن أيمن قد دخل مصر عام ٧٨ أو ٧٩ هـ. ولكن المؤرخين أجمعوا على أن أيمن اتصل بعد خروجه من مصر يبشر بن مروان إبان ولايته على العراق. وقد كانت هذه الولاية في عامي ٧٤ و ٧٥ هـ. وإذن فقد خرج أيمن من مصر في هذا التاريخ، ونخرج بأنه ربما غزا يحيى بن الحكم الصائفة في غير سنة ٧٨هـ. وأهمل ذلك الطبري وغيره من المؤرخين وكثيراً ما كانوا يفعلون، فابن الأثير مثلاً لم يذكر في كامله غزوة ٧٨هـ. نفسها وربما لم يكن غضب أيمن على يحيى هو الذي دفعه إلى دخول مصر. والحق

إنني أرجح أنه دخلها مع مروان بن الحكم في سنة ٦٥هـ، وقد جاء لاستخلاصها من أيدي الزبيريين. ويؤيد ذلك أن الكندي روى بيتين من الشعر لأيمن في انتصار المروانيين على الزبيريين بمصر قال (ولاة مصر٦٩):

إذا ما استبدلوا أرضاً بأرض
لذي العقب التداول والطواء
فبالأرض التي نزلوا مناهم
وبالأرض التي تركوا اللقاء

وإذن فقد أقام أيمن بن خريم في مصر قريباً من عشر سنوات إلا إذا كان دأب على الخروج منها والعودة عليها بين حين وآخر.

ويجمع المؤرخون على أن أيمن حظي عند عبد العزيز بن مروان ونال إعجابه وحبه وعطفه. وطبيعي أن أيمن قابل ذلك بالمدائح ولكن الأمر الذي يؤسف له .وله دلالته على قدر ما ضاع من أدب مصري، أننا لم يبق لدينا غير بيتين اثنين، قال فيهما (ولاة مصر ٧٣):

لا يرهب الناس أن يعدلوا
بعبد العزيز بن ليلى أميرا
ترى قدره معلناً بالفناء
يلقم بعد الجزور الجزورا

وقال أيمن لما أراد الأصبغ بن عبد العزيز أن يتزوج من سكينة بنت الحسين، وكانت قد تزوجت ثلاثة قبله (المرادفات من قريش ٦٦):

نكحت سكينة في الحساب ثلاثة
فإذا دخلت بها فأنت الرابع
إن البقيع إذا تتابع زرعه
خاب البقيع وخاب فيه الزارع

وأخيراً اصطدم أيمن بعبد العزيز بن مروان صدمة عنيفة بسبب شاعر جديد قدم من المشرق فاستطاع أن يسترق الخطأ إلى قلب عبد العزيز وأن يزيل أيمن عن مكانه ويحل محله. وصور أبو الفرج الجلسة الختامية في هذه المعركة أجمل تصوير، حين روى على لسان نصيب الشاعر الأسود اللون، قال: «فدخلت فسلمت على عبد العزيز. فصعد فيّ بصره وصوب ثم قال: أنت شاعر! ويلك! قلت: نعم، أيها الأمير. قال: فأنشدني. فأنشدته فأعجبه شعري. وجاء الحاجب فقال: أيها الأمير، هذا أيمن ابن خريم الأسدي بالباب قال: أئذن له. فدخل فاطمأن. فقال له الأمير: يا أيمن بن خريم، كم ترى ثمن هذا العبد؟ فنظر إليّ فقال: والله لنعم الغادي في أثر المخاض هذا، أيها الأمير أرى ثمنه مئة دينار. قال: فإن له شعراً وفصاحة. فقال لي أيمن: أتقول الشعر؟ قلت: نعم. قال: قيمته ثلاثون ديناراً.

قال: يا أيمن، أرفعه وتخفضه أنت! قال: لكونه أحمق، أيها الأمير، ما لهذا وللشعر! أمثل هذا يقول الشعر! أو يحسن شعراً! فقال: أنشده يا نصيب. فأنشدته. فقال له عبد العزيز: كيف تسمع يا أيمن؟ قال: شعر أسود هو أشعر أهل جلدته. قال: هو والله أشعر منك. قال: أمني أيها الأمير! قال: إي والله منك. قال: والله أيها الأمير، إنك لملول طرف. قال: كذبت والله ما أنا كذلك ولو كنت كذلك ما صبرت عليك! تنازعني التحية وتؤكلني الطعام وتتكيء على وسائدي وفرشي وبك ما بك - يعني وَضَحاً كان بأيمن - قال: أئذن لي أخرج إلى بشر بالعراق، واحملني على البريد. قال: قد أذنت لك. وأمر به فحمل على البريد إلى بشر».

فهجا أيمن نصيباً بشعر بقي لنا منه بيت واحد (سمط اللآلىء ٢٩٢):

خيـــر الشعـر أشـــرفـــه رجـــالاً
وشـر الشعـر مـــا قـــال العبيـــدُ

وقال يمدح بشر بن مروان، ويعـرض بعبد العـزيز، ويومىء إلى نمش كان بوجهه:

ركبت من المقـطم في جمادي
إلى بشـــر بن مـروان البـــريـدا

ولـو أعـطاك بشـر ألف ألف
رأى حقـاً عليـه أن يـزيـدا
أمـيـر المـؤمنـين أقـم ببـشـر
عمـود الـدين إن لـه عمـودا
ودع بشـراً يقـوِّمهم ويُحْـدثْ
لأهـل الـزيـغ إسـلامـاً جـديـدا
وإنـا قـد وجـدنـا أم بـشـر
كـأم الأسـد مـذكـاراً ولـودا
كـأن التـاج تـاج أبي هـرقـل
جـلوه لأعـظم الأيـام عـيـداً
يحـالف لـونـه ديـاج بشـر
إذا الألـوان خـالفت الخـدودا

فقبله بشر ووصله ولم يزل أثيراً عنده.

وطال مقام أيمن بن خـريم بالعـراق، فوصلت إلينـا مقطوعتان يمدح فيهما بشراً. ثم ذكر حروب العراقيين مع غزالة الخارجية، فقال:

أتـيـنـا بـهـم مثـتـي فـارس
من السـافكين الحـرام العبيـطا
وخمسـون من مـارقـات النسـاء
يسحبن للمُنـديـات المـروطـا

وهم مئتا ألف ذي قونس
يئط العراقان منهم أطيطا
رأيت غزالة إن طرحت
بمكة هودجها والغبيطا
سمت للعراقين في جمعها
فلاقي العراقان منها بطيطا
ألا يستحي الله أهلُ العراق
أن قلدوا الغانيات السموطا
وخيل غزالة تسبي النساء
وتحوي النهاب وتحوي النبيطا
ولو أن لوطاً أمير لكم
لأسلمتم في الملمات لوطا

أبو تمّام في مصر

أجمع المؤرخون القدماء والمحدثون على أن حبيب بن أوس الطائي، الذي اشتهر بكنيته: أبي تمام، أقام مدة من حياته بمصر ولكنهم عندما أرادوا أن يضعوا هذه المدة موضعها الدقيق في حياته، تشعبت بهم الطرق، واختلفت الآراء.

أدمجت جماعة من المؤرخين الأعوام الأولى من حياة الشاعر في الشام ومصر، ولم تفرق بينها.

قال ابن الأنباري، والخطيب البغدادي، وابن عساكر عنه: «شامي الأصل، وكان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع. ثم جالس الأدباء فأخذ عنهم، وتعلم منهم، وكان فطناً فهمًا. وكان يحب الشعر، فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر وأجاده، وسار شعره، وشاع ذكره. وبلغ المعتصم خبره، فحمله إليه وهو بسر من رأى».

فهذا القول لا يبين متى كان الشاعر في الشام، ومتى كان في مصر؛ ويقتصر على أن ذلك كان في حداثته.

كذلك قد نفهم منه أن الشاعر لم يتصل بأحد من الخلفاء قبل المعتصم، وأنه بقي بمصر يبدع الشعر إلى أن استدعاه المعتصم إلى عاصمته بالعراق.

وأورد ابن خلِّكان قولين، ظاهرهما التناقض. قال: «كانت ولادة أبي تمام بجاسم... ونشأ بمصر، قيل إنه كان يسقي الناس ماء بالجرة في جامع مصر. وقيل كان يخدم حائكاً ويعمل عنده بدمشق، وكان أبوه خماراً بها».

فلم يبين متى كان في دمشق ومتى كان بمصر. ولكن المؤرخين المحدثين فهموا من هذا القول أن الشاعر ولد بجاسم، ثم انتقل منها إلى دمشق ثم إلى مصر؛ وأن كل هذه الأسفار كان في نشأته أو حداثته؛ وأنه كان يكسب قوته في هذه البلاد من الإشتغال بالحرف المذكورة.

ولما كتب مرجليوث مقاله عن أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية، جاء برأي جديد. قال: «يقال إنه قضى فترة من شبابه بدمشق... وانتقل من دمشق إلى حمص، وبدأ فيها حياته الشعريه فنظم القصائد الهجائية في أسرة عتبة بن أبي عاصم خدمة لولاة نعمته بني عبد الكريم. ثم رحل إلى مصر... ودرس بها الأدب العربي - وبخاصة الشعر - وما يتصل به. ومدح عياش بن لهيعة الحضرمي، ثم هجاه. وفعل مثل ذلك في دمشق مع أبي المغيث موسى بن إبراهيم

الرافقي وبعد أن حاول عبثاً أن ينال رضا المأمون، انتقل إلى الموصل حيث أمضى شطراً كبيراً من حياته».

فيوافق مرجليوث السابقين في أن الشاعر درس الأدب والشعر في مصر، ثم يخالفهم حين يصرح بأن الشاعر انتقل من دمشق إلى حمص لا مصر. ثم لا يبين في وضوح متى مدح الرافقي: في دمشق قبل ذهابه إلى مصر أو بعد عودته منها؟ ثم يخالف الجماعة الأولى حين يعلن أن الشاعر حاول الإتصال بالخليفة المأمون، فلم ينجح، وإذن فهو لم يرحل من مصر إلى العراق في عهد المعتصم مباشرة، وإنما جال في الشام، والموصل قبل أن يرى سر من رأى. كذلك يخالفهم إذ يرى أن الشاعر استهل حياته الفنية في حمص لا مصر.

وارتضى الدكتور شوقي ضيف معظم ما قال مرجليوث، فقال: حقاً إنه ولد في جاسم. ولكنه قضى أيام شبابه الأولى في دمشق... وقد انتقل منها إلى حمص بعد ذلك، حيث بدأ حياته الفنية».

وأنكر الدكتور نجيب البهبيتي هذا القول، وأعلن أن أبا تمام ذهب إلى حمص بعد مغادرته مصر، وأن أول شعر له قاله في مصر، كما ذكر الصولي وغيره. وأيد قوله بنزول الشاعر مصر صغيراً، وما في شعره في عتبة بن أبي عاصم من دلالة على أنه قاله بعد أن نزل المشرق والحجاز، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد خروجه من مصر.

ثم أدلى الدكتور ألبهبيتي برأي انفرد به، إذ ذهب إلى أن الشاعر نزل مصر مرتين. ولكن أقواله تضطرب عند تحديد المرة الأولى منهما. فذكر مرة أنها حول سنة ١٩٥ (ص ٦١) ثم عاد وذكر أنها حول سنة ٢٠١ (ص ٦٤)

ولا يوفق بين القولين إلا الذهاب إلى أن الشاعر بقي بمصر منذ سنة ١٩٥ إلى سنة ٢٠١، وقد قال الشاعر نفسه إنه عاش في مصر قريباً من خمس سنوات:

أخمسة أحــوالٍ مضت لمغيبــه
وشهران بل يومان ثكل من الثكل

ولكن هذا القول ينافي ما قاله الدكتور البهبيتي أيضاً من أن الشاعر ترك مصر إلى الشام سنة ١٩٨، ومدح الرافقي، وانحدر إلى الرقة، ثم كور الفـرات التي كان فيهـا سنة ٢٠٠

وقد جعل الدكتور المدة من ٢٠٥ هـ إلى ٢١١ «فترة غامضة» في حياة أبي تمام. ويخيل إليَّ أن الوصف منطبق على الفترة السابقة عليها كل الإنطباق. وذلك أمر طبيعي. فقد كان الشاعر في حداثته، لم يبلغ من الإبداع، ولم يحز من الشهرة، ما يجعل الأنوار تسلط عليه وعيون التاريخ تراقبه.

ويتبين من الأقوال التي أوردتها أنها تبلغ من الإختلاف درجة تجعل من العسير على المرء أن يهتدي إلى وجه الحقيقة فيها، أو أن يعتمد عليها. وإذن فهو مضطر إلى اللجوء إلى

شعر الشاعر نفسه، ليتناول منه الخطوط التي يؤلف منها الصورة الحقيقية. ولكن ذلك ليس بالأمر اليسير، فديوان أبي تمام، الموجود بين أيدينا اليوم، لا يشتمل على جميع شعره. فقد عثرنا على بعض المقطوعات، منسوبة إليه، في كتب الأدب والتاريخ، ولا يضمها الديوان.

كذلك ذكر الشاعر نفسه في بعض شعره الموجود أنه مدح أفراداً، ولكن هذا المدح لا وجود له في الديوان.

أضيف إلى ذلك أن الشاعر كان كثير الأسفار في أرجاء العالم الإسلامي، من مشرقه إلى مغربه، وأن كثيراً من الذين مدحهم تنقلوا في البلدان التي تنقل بينها الشاعر نفسه. ولا يضم كثير من قصائده إشارات أو دلالات أو أحداثاً تحدد تاريخ قوله، فتحدد موطنه. نمثل لذلك بالمأمون، والمعتصم، وعبد الله بن طاهر، وخالد بن يزيد الشيباني، وأبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي؛ الذين وفدوا إلى مصر، وإلى الشام، وإلى غيرهما من الأقطار التي تنقل فيها أبو تمام.

* * *

لا يخامر الشك أحداً من الدارسين في وجود أبي تمام في مصر، منذ ٢١١ هـ إلى ٢١٤ هـ. ويعتمد هذا اليقين على أقوال المؤرخ المصري محمد بن يوسف الكندي في كتابه «ولاة مصر» فقد ذكر أن المأمون أراد أن ينهي سلطان آل

السري بن الحكم على مصر، وأن يرجعها إلى طاعته، فبعث إليها أعظم قواده عبد الله بن طاهر سنة ٢١٠هـ. فاشتبك في قتال عنيف مع عبيد الله بن السري سنة ٢١١هـ، انتهى بانتصار ابن طاهر. فنظم أبو تمام قصيدة يمدح فيها ابن طاهر، ويشيد بانتصاره، وقال فيها[1]:

لعمري لقد كانت بمصر وقيعة
أقامت على قصْد الهدى كلَّ مائل
على الخندق الأقصى وما كان حوله
وما قد يليه من فضاء وساحل
رأى ابن السري النصر أول يومه
وأودى بليثٍ من أبي السَّردْ باسل
لوين جموع ابن السري، وخيله
شماطيط تترى كالنعام الجوافل
فلما رأوا أن لا محيص وأنه
كفاح الردى في كل حق وباطل
توخَّوا أمان الأريحيّ ابن طاهر
فمن فارس يأتيه طوعاً وراجلِ

وذكر أنه نظم بعض الأشعار في أحداث وقعت سنة ٢١٤، وأورد شواهد من قصائد موجودة في ديوانه حقاً.

(١) القصيدة غير موجودة في الديوان.

وأخرج الدكتور البهبيتي أبا تمام في السنة المذكورة نفسها، وتوجه به إلى العراق. واستدل على ذلك بمرثيته المشهورة في محمد بن حُمَيْد الطُّوسي، الذي قتل في تلك السنة في حروب بابك الخُرَّمي:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر
فليس لعَينٍ لم يفض ماؤها عذرُ

ويغلب على الظن أن هذا الإستدلال صحيح.

ولكن هل دخل أبو تمام مصر في سنة ٢١٠هـ أو قبلها؟

إن ما قبلها هو الفترة الغامضة التي أشار إليها الدكتور البهبيتي. فالكندي لم يورد أي شعر لأبي تمام في أحداث ما قبيل السنة المذكورة، ويشاركه في ذلك كل من أرَّخ لمصر ووصل إلينا كتابه. ولكن الديوان يروي بيتين له في هجاء المطلَّب بن عبد الله الخزاعي، قال فيهما:

أولُ عدلٍ منك فيما أرى
أنك لا تقبل قول الكذب

مدحتُكم كذباً فجازيتين
بخلاً، لقد أنصفتَ يا مطَّلِب

وقد ولي هذا الرجل مصر مرتين: الأولى عام ١٩٨، والثانية في عامي ١٩٩ و٢٠٠ هـ. ثم غادر المطلب مصر إلى مكة ثم اتصل بالمأمون وإبراهيم بن المهدي، وشارك في

أحداث ٢٠١ و٢٠٣ في العراق. ثم لم نعد نسمع له ذكراً.

فإذا كان أبو تمام قد مدح هذا الرجل[1] وهجاه في مصر، فالمظنون أنه فعل ذلك في السنوات المذكورة.

ونخرج من ذلك بأن أبا تمام كان بمصر في المدة بين عامي ١٩٨ و ٢٠٠.

كذلك اتصل أبو تمام بعيّاش بن لَهِيعة الحضرمي، وكان من أشراف مصر، وابن أحد قضاتها المشهورين. ولم يذكر المؤرخون عنه شيئاً كثيراً، غير أن الكندي صرح أنه كان على الشرطة في ولاية سليمان بن غالب البجلي في سنة ٢٠١ هـ؛ وهو منصب يقابل مدير الأمن العام اليوم.

وذكر البديعي أنه كان صاحب الخراج، ولم يحدد تاريخ توليه هذا المنصب.

وقد ذهب الدكتور البهبيتي إلى أن اتصال الشاعر بعياش كان في السنة المذكورة.

ولكن ذلك كله ظنون وفروض، فلا نستطيع القطع بأن الشاعر اتصل بالمطلب الخزاعي إبان ولايته على مصر، أو اتصل بعياش في أثناء رياسته المذكورة على الشرطة، بالرغم من قوله في إحدى مدائحه:

---

(١) لم يصل إلينا مدحه للمطلب.

يهولك أن تلقاه صدراً لمحفل
ونحراً لأعداء وقلباً لموكبِ

فقد ظن الدكتور البهبيتي أن في هذا القول إشارة إلى منصب الرجل. ولكن ذلك غير يقيني، ولا يستطاع القطع بأن عياشاً لم يلِ منصباً تنطبق عليه هذه الإشارة، في زمن آخر لم تحدده كتب التاريخ.

والحق أنه لا يوجد في القصائد التي يقال أن أبا تمام قالها في الشام، في المدة التي غابها عن مصر، أي بين عامي ٢١٠هـ، ما يقطع بزمن قولها. وإنما يقوم تأريخها جميعاً على فروض مجردة، قائمة على إشارات ليست لها دلالة واحدة محددة. وقد اضطر الدكتور البهبيتي إلى أن يقول إن الشاعر مدح مالك بن طوق وأبا المغيث الرافقي مرتين، في زمنين متباعدين، بسبب هذه الإشارات، بل اضطر إلى أبعد من ذلك، فعمم الحكم، وقال: «وفي الشام يمدح أبو تمام طائفة من الناس، ولكن هذا المدح يجيء أيضاً في أزمنة متفرقة».

ولعل الأمر الوحيد المؤكد، هو زمن مدحه للحَسن بن سهل، فقد غلبت السوداء ـ وهي نوع من الجنون ـ على الحسَن في سنة ٢٠٣هـ، فمنعته من التصرف، فوضع في الحديد وجعل على عسكره دينار بن عبد الله. فلا بد أن الشاعر مدحه قبل هذا التاريخ.

كل هذا يجعل المرء غير قادر على تتبع أبي تمام في أسفاره

المتعددة، وغير قادر على القطع بتواريخها. ولكن الأمر المؤكد أنه نزل مصر في زمن مبكر، وأنه درس الأدب فيها، وأن أول شعر شدا به كان فيها. فإن هذا ما يستقيم مع أكثر أقوال المؤرخين، ومع وصفهم لما كان يقوم به من أعمال في مصر. فمن المرجوح أن يشتغل بالسقاية من عرف الشعر، وقدر على المدح والهجاء، والإشتباك في المعارك الشعرية، كما يصفون أبا تمام في حمص.

ولذلك يذهب ظني إلى موافقة الدكتور البهبيتي في أن الشاعر أتى مصراً أولاً.

ولكني أظن أن الشاعر بعد أن انتهى من دروسه واستطاع نظم الشعر، وخابت آماله في عياش بن لهيعة وغيره، لم تطب له الإقامة الخالصة في مصر، فجعلها مقره ومقر أسرته، الذي يخرج منه لطلب الرزق، ثم يعود إليه عند طلب الراحة.

ولست أستطيع القطع بهذا الرأي، ولكني أجد فيه ما يوفق بين الأقوال المتضاربة.

فإذا كان الشاعر لم يتصل بعياش والمطلب في المدة المؤكد وجوده فيها في مصر (٢١٠ ـ ٢١٤ هـ) فلا بد أن ذلك كان قبلها. وما قبلها فترة غامضة، يبدو أنه مدح فيها جماعة من أماكن متباعدة.

وأضيف إلى ذلك: أن الشاعر أشار إلى أن أسرته

(زوجته) وإخوانه يحلُّون مصر، وذلك في إحدى مدائحه في محمد بن حسان الضَّبِّيّ الذي كان يقيم في الرقة، حيث يقول:

بالشام اهلي، وبغداد الهوى، وأنا
بـالرَّقتين، وبـالفسـطاط إخـواني
خلَّفت بالأفق الغربي لي سكنـاً
قد كان عيشي به حلواً بحُلوان
أفنيتُ من بعده فيض الدموع كما
أفنيت في هجره صبري وسلواني
وليس يعرف كنهَ الوصل صاحبه
حتى يغـادَى بنـأيٍ أو بهجـران

* * *

وإذا أراد الباحث أن يعرف ما نظم أبو تمام في مصر من شعر، وجد أن ذلك لا يقل عسراً عن معرفة تنقلاته. فقد ضاع كثير من شعره، والمصري منه بخاصة، كما تبين سابقاً.

كذلك يوجد من الفنون الشعرية ما يبعد أن يضم أية إشارة أو دلالة على موطنه، كالغـزل والفخر والـوصف، فيتعذر الحكم عليه.

ولذلك فنحن مضطرون إلى الإقتصار على ما فيه دلالة على مصريته، وإن لم نستبعد أن يضم الديوان شعراً مصرياً آخر.

وقد قال أبو تمام الشعر في مصر في المدح، والعتاب، والهجاء، والفخر، والرثاء.

مدح المطلب الخزاعي بقصائد لم يصل إلينا بيت واحد منها كما عرفنا.

ولكن أول مدح له - بل يقال أن أول شعر له على الإطلاق - كان في مدح عياش بن لهيعة، ومطلعه:

تَقي جمحاتي لست طوع مؤنِّبي
وليس جنيبي إن عذلت بمُصحبي

وذكر البحتري عن أبي تمام أن عياشاً كافأه عليها بخمسة آلاف درهم.

ومدح أبو تمام عياشاً بقصيدة أخرى، مطلعها:

أحيا حشاشة قلب كان مخلوساً
ورمّ بالصبر عقلاً كان مألوساً

ويذكر الشاعر في مدحه لعياش أنه إنما أتى مصر طمعاً في لقائه وكرمه، وأنه لو كان بطُوس لسافر إليها.

ثم يغدق عليه المدائح، فيصفه بالجود خاصة، ويطنب في ذلك، ثم يصف مجد آبائه من عرب الجنوب، ويعرض لأشياء أخرى من مفاخره.

ولا تعطي قصائده دلالة خاصة عن عياش ولكنها تدل

على حداثة الشاعر قال:

أحاولتَ إرشادي فعقليَ مرشدي
أم استَمْتَ تأديبي فدهري مؤدِّبي
همـا أظلمـا حـالي ثُمـة أجْليَـا
ظلاميهما عن وجـه أمرَد أشيبِ

وأعتقد أن الشاعر قال قصيدته الوحيدة التي مدح فيها أهل بيت الرسول في مصر، بدليل قوله فيها:

وما زلت ألقي ذاك بالصبر لاسأ
رداءيه حتى خفت أن يجزع الصبر
وإن نكيـــراً أن يضيق بمن لـه
عشيـــرةٍ مثلي أو سيلتـه مصـــر

فيمدح علي بن أبي طالب، ويسرد مآثره في الإسلام، وينعي على العباسيين ـ دون أن يسميهم ـ أفاعيلهم، ويعلن أن هواه معهم.

وهو يصرح في هذه القصيدة بأنه لم يبلغ السابعة عشرة من عمره بعد، إذ يقول:

وإن الذي أحذاني الشيب للذي
رأيتِ، ولم تكمل لي السبع والعشر

ويتضح في مدائحه الثلاث ضيقه، وتبرمه بدهره،

وإحساسه القوي بتفوقه وجدارته بما لم يستطع أن يناله بعد.

كما يتضح فيها بواكير مذهبه الفني من اهتمام بالبديع، ونثر للإشارات العلمية المتخذة من التاريخ العربي خاصة في تضاعيف شعره.

ويبدو أن نفس أبي تمام الطموح، القلقة، المتسرعة، لم تجد فيها نالت من عياش بغيتها، فتطلعت إلى المزيد منه. فلم يستطع أن يلبي جميع حاجاتها، فوقعت بينهما الجفوة. وكان ذلك أمراً محتمًا، على الرغم من الخبر الذي رواه ابن عبد ربه في سبب الجفاء. قال: إن أبا تمام استسلف عياشاً مائتي مثقال. فشاور فيه زوجته، فقالت له: «هو شاعر: يمدحك اليوم ويهجوك غداً». فاعتذر إليه ولم يقض حاجته. فقد تكررت الظاهرة نفسها مع كثير من ممدوحيه في هذه المدة، مثل المطلب الخزاعي وأبي المغيث الرافقي.

وآثر الشاعر اللين أولاً، واختار البقيا، فعاتب عياشاً عتاباً رقيقاً. ذكّره فيه بسفره إليه، وآماله فيه، وإشهاره بالجود، والتمس منه أن يدع التقطيب في وجهه حين يراه، وأن يهش له. لكن الأمر طال بالشاعر:

الفطر والأضحى قد انسلخا ولي
أملٌ ببابك صائم لم يفطرِ
حولٌ ولم ينتج نداك وإنما
تتوقع الحبلى لتسعة أشهر

جشْ لي ببحر واحد أغرقك في

مـدح أجيش لـه بسبعـة أبحـر

وبعد أربع قصائد في العتاب، رأى أن السؤال ذلّ يقف في حلقه كالشّجا، وأنه قد طال كظمه لغيظه؛ فانفجر صاخباً، هـاجياً، في شتـائم مقذعـة. فنظم اثنتي عشرة مقطوعة وقصيدة، تكشف عن غضب هائل يعتمل في نفس الشاعر، ويفيض على لسانـه. فنفي عياشـاً من العرب، وجعل الزنج والروم أكرم من أسرته، وهجاه وأباه، ووصفه باللؤم والبخل والخسة والتفريط في العرض، وصب عليه السباب المقذع. بل لم يكف عنه بعد أن مات، فأطلق مقطوعة هجائية تشيِّعه، قال فيها:

أهـون بـعيـاشٍ عـلّي مغيباً

في غير حفرتـه الحِجي والخِير

لـو كان للجبـل المقـطم ريشـة

مـا شـك خلقٌ أنـه سيـطيـر

وأرى نكيـراً صد عنـك ومنكراً

ظنـاً بـأنـك منـكـرٌ ونكيـر

وتضـور القبـر الـذي أسكنتَـه

حتى ظـننـا أنـه المـقـبـور

كذلك هجا أبو تمام عيسى بن زيد الجلودي، الذي ولي مصر سنة ٢١٤ هـ، ولكن المصريين ثاروا عليه، وقاتلوه،

وهزموه في النويرة؛ فاتهمه الشاعر بالإختلاس، وعيره بالهزيمه، وأشاد بالمقاتلين من المصريين:

قـل لـلجـلوديّ الـذي يـده
ذهـبت بـمـال خنـوده شعبـا

الله أعـطاك الـهـزيـمـة إذ
جـذبتك أسباب الـردى جـذبا

لاقتك أبطال تحث إلى ضننـك
الـمـقـام شـوازبـاً قُـبّـا

فنـزلت بين ظـهـورهم أشـراً
فَقَـرَوك ثَمّ الـطعن والضـربا

ولم يقذع في القصيدة شأنه مع عياش، وإنما لجأ إلى التهكم والإشادة بالخصوم وتصوير ما وقع في القتال، بحيث يحط من شأن الجلودي.

ونجد الإتجاهين في هجائه ليوسف السراج، شاعر مصر في ذلك الحين. فقد سبه في قصيدة جيمية سباً مقذعاً، شتم فيه أمه وزوجته وأهله، وهدده بشعره. وسخر منه في أخرى بائية، فرماه بالجهل، والإغراب اللفظي، وعدم القدرة على قول الشعر الجيد. قال:

أيـوسف جئتَ بالعجب العجيب
تـركتَ النـاس في أمـر مـريبِ

سمعت بكل داهية نآدٍ
ولم أسمع بسراج أديب
فما لك بالغريب يدٌ ولكن
تعاطيك الغريب من الغريب
فلو نبش المقابر عن زهَيْرٍ
لصرح بالعويل وبالنحيب

وذكر الكندي أن أبا تمام رثى الوالي عمير بن الوليد التميمي البادغيسي، الذي قتله الثوار المصريون في سنة ٢١٤ هـ.

ويضم الديوان قصيدتين، يصرح أنهما في رثاء الوالي المذكور، وأن الدالية منهما من أول شعره. ولكنه يقول فيها:

ألا أبلغ خليفتنا مقالي
وأبلغه الأمين بن الرشيدِ
بأن أميرنا لم يأل عدلاً
ونصحا في الرعايا والجنود

ويعلن هذا الشعر أن مقتل عمير كان في خلافة الأمين، الذي قتل في سنة ١٩٨ هـ. فيناقض بذلك ما جاء في كتاب الكندي.

والحق أنه لا يخالف الكندي وحده، بل يخالف

الطبري والذهبي، فقد أجمعوا على وفاة عمير في سنة ٢١٤ هـ.

والأمر إذن مشكل، ولا بد من خطأ أحد الفريقين، أو ربما كان البيت محرفاً أو ملحقاً بالقصيدة.

وقد وصف الشاعر المرثى بالجود والشجاعة والبلاء في الحرب، وأبان عن وقع موته على الأبطال وطالبي العطاء. وأفاض في وصف المصيبة:

ألا إن النـدي والجـود حـلا
بحيث حللتَ من حُفَر الصعيدِ
بنفسي أنت من ملك رَمَتـه
مَنِيتـه بسهـم رَدىً سـديـدِ
تجلت غمـرة الهيجـاء عنـه
خضيبَ الوجه من دمه الجسيد
فيـا بحـر المنـون ذهبت منـه
ببحر الجود في السنة الصلود
ويـا أسـد المنـون فَـرَستَ منـه
غـداة فَـرَسَتـه أسَـد الأسـود

ورثى أبـو تمام من يـدعى «يحي بن عمـران القمّي» بقصيدة في ديوانه. ولست أعرف عنه شيئاً غير أني أظن أنه كان يقيم بمصر، فقد أشار الشاعر إلى دفنه بالمقطم:

أي أمرىء منك أثري بين أعظمه
ثري المقطم أو ملحوده الرمل

كذلك تدل القصيدة على أنه كان أحد القواد، فقد أشادت بمواقفه في المعارك، واشتباكاته مع الخصوم، قال:

المشعِل الحرب ناراً وهي خامدة
والمستبيح حماها وهي تشتعل
بكل يوم وغى تصدى الكماة به
على يديه وتروي البيض والأسل
يغشى الوغى بالقنا والخيل عابسة
بالخيل لا عاجز فيها ولا وكَل

وقال الشاعر في مصر مقطوعة في الفخر؛ ذكر فيها تغربه في مصر، وشحوب لونه، ولكنه حريص على المجد، ساع إلى الغنى، وإن لم يبلغ مناه، فقد مات كبراء مصر:

ولو بصرت به لرأت حريصاً
بماء الدهر حِليَته الشحوب
كنصل السيف عرى من كساه
وفلت من مضاربه الخطوب
زعيم بالغنى أو ندب نوح
تشقق في مآتمه الجيوب
فأصبح حيث لا نقع لصاد
ولا نشب يلوذ به حريب

بمصـــر، وأي مـــأربـــة بمصـــر
وقـد شعبت أكـابـرهـا شعــوب

وشكا سوء حاله بمصر في قصيدة طويلة، تشوق فيها إلى الشام ووصف غربته وبعده في مصر، وخيبة آماله. قال:

بنفسي أرض الشام لا أيمن الحمى
ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرمل
ولم أر مثلي مستهـــامـــاً بمثلكم
ولا مثل قلبي فيه ما فيه لا يغلي
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى
لها وطر في أن تمر ولا تحلي

وأخيراً أخرج الشاعر من مصر، خالي الوفاض، محطم الآمال، ولكنه لا يدري أنها زودته بما سيجعله أحد شعراء العربية. الذين يختلف النقاد في تقديمهم على بقية الشعراء جميعاً غير أنهم لا يختلفون على وضعهم في الصف الأول.

زودته بدراسة للأدب العربي، وحب للإطلاع، وتذوق للرائع من القول، وقدرة على الإسهام فيه.

بل ذهب بعض المحدثين إلى أنها زودته ببعض خصائص مذهبه الذي عرف به، وأخذها الشاعر عن شاعر مصر: السراج، دون أن يدري، أعني: الإغراب، الذي عابه أبو تمام على السراج ثم عابه النقاد بعد ذلك على أبي تمام.

البحتري ومصر

تحدث ابن تغري بردى[1] عن البحتري، فذكر أنه «وصل إلى مصر إلى خمارويه» ورفض الدكتور محمد صبري[2] هذا الخبر، ورأى أن البحتري «ما كان بحاجة إلى الذهاب إلى مصر إذ كان خمارويه كثير التردد على الشام خصوصاً بعد مصاهرة الخليفة له» وإلى الرأي الأخير مال أكثر من كتب عن الشاعر وتعرض لهذا الأمر.

ولكن البحتري نفسه قال، وهو يسأل إسماعيل بن بلبل الذي تولى الوزارة للمعتمد من ٢٦٥هـ إلى ٢٧٧هـ أن يعاونه على الخراج[3]:

ما كسبنا من أحمد بن علي
ومن النيل غير حمى النيل

(١) النجوم الزاهرة ٣: ٩٧.
(٢) أبو عبادة البحتري ٧٤.
(٣) ديوانه ٢: ١٨١.

فهل أصيب بهذه الحمى التي أكسبه النيل إياها في مصر؟ أو هل يريد بحمى النيل مجازاً؟ أو هل يريد النهر الصغير بالعراق المعروف باسم النيل؟ كل هذه أسئلة تدور بخلد قارىء البيت، ويحار في الإجابة عنها. غير أننا لا نلبث أن نرى الشاعر يذكر نيل مصر صراحة، قال يمدح أبا الحسن بن عبد الملك الهاشمي(١):

وفتى يمد يداً إلى نَيْل العلا
فكأن مصر تمدها من نيلها

وقال يمدح ابن بلبل أيضاً(٣):

نؤمل جدواه ونرجو نَيْله
كما غنيت مصر تؤمِّل نيلها

ويستمد البحتري كثيراً من صوره من فيضان النيل وعذوبته قال يمدح حمولة(٣):

نراقب أن تسري علينا وتفتدي
أساكيب من آلائه وفضول
إذا استحدثت فيكم زيادة واحد
تدفق بحر أو تلاحق نيل

---

(١) ديوانه ٢ : ١٨٤.
(٢) ديوانه ٢ : ١٩٧.
(٣) ديوانه ٢ : ١٨٤. وانظر ١٧٢، ١٨٠.

وقال يمدح المفضل بن إسماعيل الهاشمي[1]:

وكذاك أنت البحر ثم تكون في
كرم العذوبة مشبهاً للنيل

هذه الصور وأمثالها تجعل المرء يميل إلى ترجيح زيارة البحتري لمصر، وانفعاله بصورة الفيضان، فاحتفظ بها في ذاكرته، وأمدته بما أراد. وإلا كان البحتري مثلاً فريداً بين الشعراء الذين لم يدخلوا مصر وتأثر ببعض ما سمع عنها.

ومهما كان الأمر، فالذي لا خلاف فيه أن البحتري كان على صلات اختلفت ضعفاً وقوة بمصر، ورجالها، وأحداثها التاريخية، وخاصة في عهد الدولة الطولونية. فديوانه المطبوع يضم قصيدتين في أحمد بن طولون، وواحدة في خماروية أمكن بالبحث أن تزاد إلى خمس. وعثر أيضاً على عدة قصائد له في رجال بني طولون، وكبار موظفيهم.

وإحدى قصيدتيه في أحمد بن طولون لهجائه[1] وقد ظن بعض الباحثين أنه قالها بطلب من إبراهيم بن مدبر، لقول الشاعر في آخرها:

قُلْ لأبي إسحاق إما عَلِقْته
وأين بناءٌ في العراق سحيق

(١) ديوانه ٢: ٢٠٧.
(١) ديوانه ٢: ١٤٠.

لفـد جَلّ مـا بيني وبينـك إننـا
على سَنَن من حـربـه وطــريق
وإن أحـقَّ النـــاسِ مـني بـخُلَّة
عدو عدوي أو صـديق صديقي

فأبو إسحاق المذكور هو إبراهيم بن مدبر، أخو أحمد الذي كان على خراج مصر عندما دخلها أحمد بن طولون نائباً لواليها في عام ٢٥٤ هـ. وقد نشأ عداء مستحكم بن أحمد بن مدبر وأحمد بن طولون منذ دخول الأخير مصر، إلى وفاة الأول حبيساً في سجن الثاني في عام ٢٧٠ أو ٢٧١ هـ، وحاول ابن مدبر طيلة هذه المدة أن يدس لابن طولون عند الخلفاء ويحثهم على خلعه عن مصر.

ولكن الشاعر أعلن في القصيدة سبب نظمها، وهو غير ما ظن هؤلاء، قال:

وما زلت أخشى مذ تولى ابن يلبخ
على سَعـةٍ من أن تـدالَ بِضيقِ
وما كان مالي غيرَ حُسْوةِ طائـر
أضيف إلى بحـر بمصـر عميق
لئن فات وفرى في اللئام فلم أُطِقْ
تــلافِيَــه مستــرجِعــاً بلحــوق
فلستُ ألوم النفس في فوت بُغية
إذا لم يكن عصري لها بخليق

فكشف أن أحمد بن طولون، الذي طعن في نسبه إلى أبيه وعزاه إلى يلبخ، صادر أمواله. ولم يكن هـذا المال ضئيلاً حتى يشبَّه بشربة الطائر، بل كان طائلاً في قـول الشاعر نفسه في قصيدة أخرى له مدح فيها الخضـر بن أحمد، وهجا ابن طولون وسماه المضلل، قال[1]:

أرقَّت جنـايـات المضلَّلِ ثَـرْوَتي
فـلا نشَب بعدَ العبيـد ولا وَفْـرُ
وقد زعموا مصرٌ معانا من الغنى
فكيف أسفَّت بي إلى عَدَمٍ مِصْرُ

ولما كان المؤرخون يشكون في دخول البحتري مصـر، شكُّوا في امتلاكـه شيئاً بهـا، ورجحوا أن هـذه الأموال المصادرة كانت بموطن الشاعر بالشام، وكان يمتلك هناك الكثير الوفير ولم يبسط ابن طولون نفوده على طرسوس إلا في سنة ٢٦٣، وعلى جميع الشام والثغور إلا في ٢٦٤ وإذن لم يكن قادراً على استصفاء أموال البحتري قبل ذلك التاريخ. ويجعلنا هذا نطمئن إلى أن القصيدة المذكورة نظمت بعد عام ٢٦٤هـ. وربما كان من أسباب المصادرة هذه الصلة بين الشاعر وابني مدبر، التي أشار إليها البحتري في قصيدته، وأثمرت عدة قصائد في مدحها.

ولعلنا لا نشتط ولا نبعد عن الصواب حين نرجع إلى

(١) ديوانه ٢: ١٠

هذا التاريخ أيضاً قصيدته التي هجا بها صاحب بريد مصر، ومطلعها[١]:

أميرَ المؤمنين أمَا غياثٌ
نؤمِّلهُ فقد طال القُنوط
أبَى عمالُنا إلا فسوقاً
لكلٍّ من أحبَّتِهم شروط

ونظم البحتري القصيدة الثانية في مدح أحمد بن طولون[٢]، وجعل الدكتور محمد صبري[٣] تاريخها حوالي ٢٦٨ - ٢٦٩. وذكر البحتري فيها انتصار ابن طولون علي سيما الطويل والي إنطاكية وقتله إياه في سنة ٢٦٥ هـ. فقال:

وما شكَّ قوم أوقدوا نار فتنةٍ
وسِرْتَ لهم في أن نارهُم تخبو
كأنْ لم يرَوْا سيما الطويل وَجَمْعَه
وما فعلت فيه وفي جمعه الحرب

وذكر أيضاً خيانة لؤلؤ غلام ابن طولون له، وهربه إلى بغداد، وكان ذلك في سنة ٢٦٩ هـ، فقال:

---

(١) ليست في الديوان المطبوع.
(٢) ديوانه ١: ٣١.
(٣) أبو عبادة البحتري ٤٣.

ولـو لم يحـاجـز لؤلؤ بفـراره
لكان لصدر الرمح في لؤلؤ ثَقْب
تَخَطّأ وجه الأرض راكبَ وجهه
ليمنع منه البعدُ ما يبذل القرب

وإذن فمحال أن يكون قد قال القصيدة سنة ٢٦٨، وإنما قالها في سنة ٢٦٩ أو بعدها بقليل. وربما كان ما ختمها به من اعتذار واستعطاف استغفاراً لهجائه إياه السابق، فيدل على أن هجاءه لابن طولون سابق على مدحه إياه، ويبرر الظن بتقارب القصيدتين. قال:

أخاف كأني حاملٌ وِزْرَ بعضهم
من الذنب أو أني لبعضهم أَلْبُ
وما كان لي ذنب فأخشى جزاءه
وعفوك مرجوّ ولو كان لي ذنب

فإن لم يكن الأمر كذلك ولم يكن البحتري متبعاً لغيره من الشعراء في التنصل من الذنب عند الإعتذار، لم يكن هناك ما يرجح أسبقية المدح.

* * *

ومدح البحتري خمارويه بن أحمـد بن طولـون بخمس قصائد لا يوجد منها في المطبوع غير واحـدة. وذكر أبـو

الغوث ابن البحتري[1] أن السبب في خروج أبيه من العراق إلى الشام ما قاله في رثاء أبي عيسى بن صاعد:

ولم أرَ كالدنيا خليلةَ صاحب
مُحبٍّ متى تحسُنْ بعينيه تُغْنِقِ
تراها عيانا - وهْي صنعةُ واحد -
فَتحسَبُها صُنعَى لطيفٍ وأخرقِ

فشنع عليه بعض أعدائه واتهمه بالثنوية. فخاف البحتري على نفسه من هياج العامة وقال لابنه: قم يا بني حتى نطفىء عنا هذه الثائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا. فخرج ولم يعد. ولم أستطع الوصول إلى تاريخ وفاة المرثي، ولكن آخر مرة ذكرته المراجع التاريخية فيها. كانت في سنة ٢٧٢ هـ، حين قبض عليه وعلى أخيه أبي صالح وأبيه وعمه عبدون، ونهبت أموالهم.

فإذا كان أبو عيسى مات قريباً من هذا التاريخ، ولم تتأخر خرجة البحتري عنه، فلم تكن إذن الخرجة الأخيرة كما يدعي ابنه. فقد كان البحتري في العراق عندما توفي الموفق في صفر ٢٧٩ هـ فرثاه وهنأ ابنه الذي ولي الخلافة في رجب من نفس العام ولقب المعتضد، بقصيدة أولها:

(١) المرزباني: الموشح ٣٤٢. المرتضى: الأمالي ٢: ٢٢٩.

نسعى وأيسر هذا السعي يكفينا
لــولا تكلُّفنا مــا ليس يَعنينــا

وفي شوال قدم بغداد الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص من مصر رسولاً لخمارويه، ومعه هدايا كثيـرة وأموال جليلة. وعرض على المعتضد تزوج ابنة خمارويه قطر الندى من ابنه المكتفي، فآثر نفسه بها وتزوجها.

ويبدو أن الشاعر سال لعابه لما رأى من هدايا خمارويه، وما سمع من ترفه وغناه، فأراد أن يصـل حبله بحبله. فانتهز فرصة الرضى والمودة بين الخليفة وخمارويـة، وسأل الأول أن يوجهه إلى الأخير، قائلاً:

أمـوجِّهي أنت إيصـاء وتقــدمـة
نزكو بها سبباً عنـد ابن طولـونا
ومطلِقي من جراحي ما أعدّ بـه
دَيناً على ناصر الإسلام مضمونا
وكم سئلتَ فمـا ألفيت ذا بخل
ولا وجـدنا عـطاء منك ممنـونـا

واستجـاب الخليفة للشـاعـر، فخـرج من العـراق إلى الشام، ومدح خمارويه بن طولون بما مدح، ولقي منه ما أشرت إليه. ولا نستطيع أن نؤرخ لقصائد البحتـري في خمارويه كما فعلنا في قصائده في أبيه، على الرغم من تعرضه

لبعض الأحداث التاريخية. فقد تعرض ليوم الثنية في ثلاث قصائد، ووصف المعركة التي دارت في هذا اليوم بين خمارويه وابن الساج وانهزام جيش خمارويه في أول الأمر، وانتهاء المعركة بانتصار خمارويه بفضل ثباته في القلة التي ثبتت معه. وأشمل وصف لها ما أتى به في رائيته[1]:

لقد كان في يوم الثنية منظر
ومستمع ينبي عن البطشة الكبرى
وعطف أبي الجيش الجواد بكرة
مدافعةً عن دير مران أو مقرا
وكائن له من ضربة بعد طعنة
وقتلى إلى جنب الثنية أو أسرى
فوارس صرعي من توام وفارد
وأرسال خيل في شكائلها عقرى

ولكن هذه الموقعة كانت في سنة ٢٧٤ هـ، قبل أن يتصل الشاعر بالأمير كما يقول المؤرخون. فإذا صح هذا القول منهم، كان تعرض الشاعر للموقعة في قصائده على سبيل الذكرى، والإشادة بالمآثر الماضية.

وهنأ البحتري خمارويه بعيد الفطر، كما كان يفعل مع المتوكل قبل، وذكر أنهما قديما الإتصال. قال:

(١) ديوانه ١: ١٢.

ولي بـك حـرمـة درجت عليهـا
صروف البعد والحجج الخوالي
ومـا أزرى بهـا طـول التنـائي
ولا أنســاكهـا قِـدَم الـليـالي
عـدت لي جنة من كـل خَطب
عَـرًا وعَـدَدتهـا جـاهي ومـالي

ويدل هذا على أحد أمرين. أما أن هذه القصيـدة من أواخر شعر البحتري في خماروية أو أن البحتري اتصل بالأمير مرتين بينهما فترة واستهل المرة الثانية بهذه القصيدة ليجدد العهد بينهما.

كذلك ذكر البحتري في نونية له بعض معارك خماروية مع الروم، مثل قوله:

ما انفكت الروم من هَمٍّ يحيرها
مذ جاورت عندك العزاء والليـنا
حتى تركت لهم يوماً نسخت به
ما تواتر الناس من أخبار صفينا
مصـــارع كتبت في بـطن لؤلؤة
من ظهر أنقرة القصـوى وطمينا

وتذكر كتب التاريخ التي بـين أيدينـا غزوتـين لجيوش خماروية، إذ دخل أحمد بن أبّاطرسوس لغزاة الصائفة من قبل خماروية في ٢٨٠ هـ، ودخل بعده بدر الحمامي، فغزوا

جميعاً مع أحمد العجيفي أمير طرسوس حتى بلغوا البلقسور. وفي ٢٨١ هـ، غزا طغج بن جف الصائفة من قبل خمارويه فبلغ طرايون وفتح ملورية.

ولعل ما ورد بالقصيدة يشير إلى إحدى الغزوتين أو كليهما معاً. وأعلن الشاعر في إحدى رائياته أنه مقيم مع الأمير وأن من كان معه على أهبة الرحيل إلى بلدته مَنبِج:

وسواي الغداء تُخْدَى مطاياه
إلى منبج وترحل عيره

وكان غزله في نونيته، وإحدى رائياته فيمن دعاها ظمياء، ويفهم من القصيدتين أنه لم يكن مقيّما مع الأمير. وانتقل من مدح الأمير إلى مدح وزيره الحسين بن أحمد المادرائي.

وذكر المرزباني أن البحتري كان يبيع قصائده جديدة ومستعملة، قال[1]: «ومما قبح فيه أيضاً وعدل عن طريق الشعراء المحمودة أني وجدته قد نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها إلى مدح غيرهم، وأمات أسماء من مدحه أولاً، مع سعة ذرعة بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه».

(١) الموشح ٣٣٦.

وقد تحقق هذا القول في إحدى قصائده في خمارويه، ومطلعها:

أوحشت أربُعُ العقيف ودورُهْ
لأنيس أجدَّ منها بكورُهْ

فقد نقلها من قصيدة له في مدح الشاه بن ميكال. فأوردها برمتها غير بيت واحد، كان قال فيه:

وأبو الصقر إنه وَزَر السلـ
ـطان في عُظْم أمره ووزيره

وزاد بعض الأبيات التي تليق بخمارويه ووزيره مثل قوله:

أصلح الشام بعد طول فساد
أسد قد حمى الشام زئيره
وإذا ما غدا أبو الجيش في الجيـ
ـش غدا الحزم مستمراً مريره

ليس يخلو من الإصابة والتو
فيق في الرأي والحسين وزيره
أخلص الجد والكفاية حتى
راح محفوظةً عليه أموره
جمع الفهم والنصيحة والتد
بير في حزم ناصح يستشيره

ونثرها في القصيدة، وغيّر ترتيب بعض الأبيات الأصيلة، والشطر الأول من أحد الأبيات. وربما كان التغيير الأخير مجرد رواية أخرى.

ولم يقصر الشاعر مدحه على الأمير والوزير بالشام بل مدح كبار موظفي الطولونيين هناك. وقد عُثر على قصيدة له في طغج ابن جف، أبي محمد مؤسس الدولة الأخشيدية، وكان أحد قواد الطولونيين. وقد وصف معاركه مع الروم فقال:

كفاه العِدَى حتى تصرّم كيدهم
طغـجّ بن جف مصلتات قنـابله
بقـونية العليـا مكاناً إذا القنـا
بقـونيـة العليـا تـدمي عـوامله
ويوم الحريق من ملوزنة انتحى
لسـاكنهـا مـوت تيسـر عـاجله

فأبان هذا أنه نظم القصيدة بعد سنة ٢٨١ هـ. كذلك أكثر من مدح إسحاق بن نصير، مساعد الوزير، المشرف على شؤون الشام، فعثرت له فيه على خمس قصائد. ولم يتعرض فيها لأحداث تاريخية تيسر معرفة تاريخها. وربما كانت داليته أولى قصائده فيه لقوله:

إليك رحلنا العيس من أرض بابل
نجور بها سمت الدبور وتهتدي

فكم جزعت من وهدة بعد وهدة
وكم قطعت من فدفد بعد فدفد
طلبتـك من أمّ العـراق نـوازعـا
بنا وقصور الشـام منك بمـرصد
إلـى إرَم ذات العـمـاد وإنهـا
لموضع قصدي موجِفا وتعمدي

ويقصد ببابل وأم العراق بغـداد، وبإرم ذات العمـاد دمشق.

أما الرائية فنؤخرها قليلاً، إذ يذكر فيها أنه أتى إليه من بلدته منبج، قال:

بك أعـطيت من مُبِـر اشتيـاقي
بَــرَدى زُلْفــةً على الســاجــور
وتــطلعت من نـزاع إلى الغـــر
ب وبـالشـرق أنستي وسـروري

فبردى نهر دمشق، والساجور نهر منبج.

ونظم البحتري الشعر في غير من ذكرت من رجال الدولة الطولونية أو بسببهم. ولكن السابقين أشهر من تعرض لهم، وأفردهم بقصائد خاصة. وكل شعره فيهم قائم على الغزل الإفتتاحي والمدح. ويسير الشاعر فيه على النهج الذي اتبعه في شعره الذي نظمه قبل ذلك في الأمصار العربية الأخرى،

ولا يقل عنه كثيراً على الرغم من كبر سنه، حتى قال الدكتور محمد صبري[1]: «والعجيب أن البحتري قال هذا الشعر وقد قارب الثمانين ولم ينضب له معين، فهو قوي الطبع خصيب المادة، لا يفتأ يجد في الحياة والكون ما يلهمه ويعينه على قول الشعر». وأعجب الدكتور صالح الأشتربنونية خماروية، وسما بها إلى الدرجات العلى، وجعلها المثال الذي احتذاه ابن زيدون ثم أحمد شوقي في نونيتيهما.

(١) أبو عبادة الوليد ٥٥.

مراجع الكتاب

١ ـ ابن الأثير أسد الغابة في معرفة الصحابة، ١٢٨٠ هـ.
الكامل في التاريخ، طبع ليدن ١٨٦٦ م.

٢ ـ أشعار الهذليين: ما بقي منها في النسخة اللغدونية غير مطبوع،
تحقيق فلهوزن، طبع برلين ١٨٨٤م.

٣ ـ الأصمعي: فحولة الشعراء، المطبعة المنيرية بالأزهر ١٩٥٣.

٤ ـ ابن الأنباري: نزهة الألبا في طبقات الأدبا، طبع ١٢٩٤.

٥ ـ بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد.

٦ ـ البحتري: الحماسة، طبع بيروت.
الديوان، طبع مصر ١٩١١.

٧ ـ البغدادي: خزانة الأدب، ١٢٩٩ هـ.

٨ ـ البكري: سمط اللآلىء، التأليف لجنة التأليفة والترجمة والنشر.

ـــ : معجم مـا استعجم من أسـماء البـلاد والمواضع، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.

: التنبيه على أوهام القالي في أماليه، طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٦.

٩ ـ البلوي: سيرة أحمد بن طولون، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٥٨ هـ.

١٠ ـ ابن تغـري بردى: النجـوم الزاهـرة في ملوك مصر والقاهرة، طبع دار الكتب المصرية.

١١ ـ أبو تمام: ديوانه، المطبعة الأدبية في بيروت ١٨٨٩.

١٢ ـ الجاحظ: البيان والتبيين، طبع ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠.

ـ : الحيوان، طبـع مصـطفـلأ البـابي الحلبي وأولاده.

١٣ ـ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة مطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ.

١٤ ـ الحصري: زهر الآداب، دار إحياء الكتب العربيـة ١٩٥٣.

١٥ ـ الخطيب البغدادي: تـاريخ بغـداد، مطبعـة السعادة ١٩٣١.

١٦ ـ ابن خلدون: تاريخ بغداد، مطبعة السعادة ١٩٠٣١.

١٦ ـ ابن خلدون: تاريخه، طبع بولاق.

١٧ ـ ابن خلكان. وفيات الأعيان.

١٨ - دائرة المعارف الإسلامية، مادة أبي تمام، والبحتري، وهذيل.
١٩ - ابن دقماق: الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، طبع بولاق ١٣٠٩ هـ.
٢٠ - ديوان الهذليين، طبع دار الكتب المصرية.
٢١ - ساويرس بن المقفع: سيرة البيعة المقدسة، الجزء الثاني، تحقيق سيبولد.
٢٢ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، طبع ليدن ١٣٢٢ هـ.
٢٣ - ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣.
٢٤ - السكري: شرح أشعار الهذليين، تحقيق كوزجارتن، طبع لندن ١٩٥٤ م.
٢٥ - السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة إدارة الوطن ١٢٩٩ هـ.
٢٦ - سيدة إسماعيل الكاشف: مصر في فجر الإسلام، نشر دار الفكر العربي ١٩٤٧.
٢٧ - شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي.
٢٨ - الطبري: تاريخ الرسل والملوك، طبع بريل ١٨٧٩ - ١٨٨١ م.
٢٩ - ابن عبد البر: الإستيعاب في معرفة الأصحاب، طبع حيدر أباد ١٣١٨ هـ.
٣٠ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق توري.

٣١ ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٣٢ ـ ابن عساكر: تاريخ دمشق، المطبوع والمخطوط.
٣٣ ـ عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩ م.
٣٤ ـ أبو الفدا: تاريخه، طبع أوروبا.
٣٥ ـ أبو الفرج: الأغاني، طبع دار الكتب المصرية.
٣٦ ـ القالي: الأمالي، طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م.
٢٧ ـ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، طبع ١٢٦٤ هـ.
: عيون الأخبار، طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٠ م
: المعارف، طبع جوتنجن ١٨٥٠ م.
٣٨ ـ ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة.
٣٩ ـ الكندي: ولاة مصر، تحقيق المؤلف.
: قضاة مصر، تحقيق رفن كست.
٤٠ ـ المبرد: الكامل، طبع ليبزج ١٨٦٤ هـ.
٤١ ـ محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، طبع دار الكتب المصرية.
٤٢ ـ محمد صبري: أبو عبادة البحتري، طبع دار الكتب المصرية ١٩٤٦.

٤٣ ـ المدائني: المردفات من قريش، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م.
٤٤ ـ المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٤٥ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبع باريس ١٨٦١.
٤٦ ـ المقريزي: الخطط، طبع بولاق ١٢٧٠ هـ.
التنبيه والإشراف. طبع ١٩٣٨.
٤٧ ـ نجيب البهبيتي: أبو تمام الطائي، طبع دار الكتب المصرية ١٩٤٥.
٤٨ ـ نصر بن مزاحم المنقري: وقعة صفين، طبع دار إحياء الكتب العربية.
٤٩ ـ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، طبع دار الكتب المصرية.
٥٠ ـ ابن هشام. السيرة النبوية، طبع مصطفى الحلبي.
٥١ ـ ياقوت: معجم البلدان، طبع أوروبا.
٥٢ ـ اليعقوبي: تاريخه، مطبعة الغري بالنجف ١٣٥٨ هـ.



المحتويات





مطابع إقرأ

هاتف: ٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧- ص.ب: ٥٢٥١/١٣- بيروت - لبنان